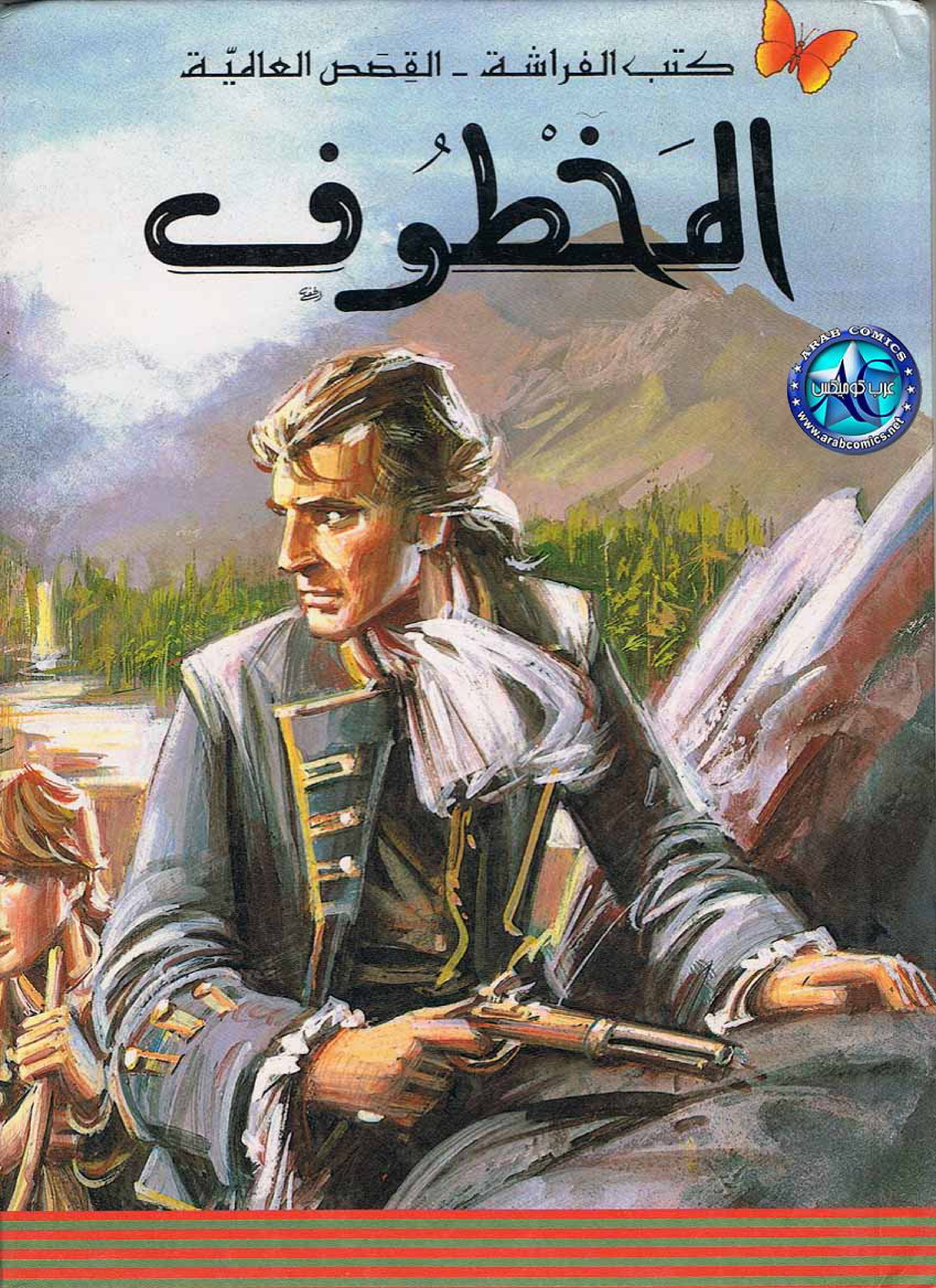

كتب الفراشة - القصص العالميّة
المَخْطُوف
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القِصص العالميّة

المَخْطُوف



أعادَ حكايَتها : الدّكتورُ ألبير مُطْلَق
عَن قِصّة رُوبَرت لويس سْتيڤنسُون



مَكتبَة لبْنَان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤
رقم الكتاب 01 C 196806
طُبع في لبنان



مقدّمة

ظَهَرَتْ رِوايَةُ «**المَخْطوف**» لِروبرت لويس ستيڤنسون سَنَةَ ١٨٨٦، عَلى شكْلِ عِدَّةِ حَلَقاتٍ في مَجَلَّةٍ لِلأَحْداثِ تَهْتَمُّ بِقَصَصِ المُغامَراتِ، ثُمَّ نُشِرَتْ، في العامِ نَفْسِهِ، في كِتابٍ. وقَدِ اكْتَسَبَتِ الرِّوايَةُ، عَبْرَ السِّنينَ، شُهْرَتَها كَرائِعَةٍ أَدَبِيَّةٍ وكَقِصَّةِ مُغامَراتٍ مِنَ الطِّرازِ الرَّفيعِ، لِأَنَّها حافِلَةٌ بِكُلِّ عَوامِلِ التَّشْويقِ مِنْ تَنَوُّعِ الشَّخْصِيّاتِ، إلى وَصْفِ أَعْمالِ الخَطْفِ ورَسْمِ الخُطَطِ والمُؤامَراتِ، إلى الجَرائِمِ المُرَوِّعَةِ والمُطارَداتِ المُثيرَةِ؛ كُلُّ ذٰلِكَ في سَرْدٍ تَفْصيلِيٍّ رَشيقٍ.

تَجْري أَحْداثُ الرِّوايَةِ في إسْكُتْلَنْدا بَعْدَ خَمْسِ سَنَواتٍ مِنْ فَشَلِ آل ستيوارْت في إيصالِ الأَميرِ تشارلز إلى العَرْشِ. وقَدْ نُقِلَتْ كُلُّ جَوانِبِ تِلْكَ الفَتْرَةِ بِدِقَّةٍ تَجْعَلُ الكِتابَ رِوايَةً تارِيخِيَّةً مُمْتِعَةً ومُفيدَةً لِلكِبارِ ولَيْسَ لِلفِتْيانِ فَقَطْ. أَفادَ ستيڤنسون مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِطَبيعَةِ جِبالِ إسْكُتْلَنْدا - خِلالَ حَداثَتِهِ - فَجاءَ تَصْويرُهُ لِمَسْرَحِ الأَحْداثِ مُفْعَمًا بِالحَيَوِيَّةِ والدِّقَّةِ.

كانَ ستيڤنسون إسْكُتْلَنْدِيًّا مُولَعًا بِتاريخِ بِلادِهِ وأَرادَ أَنْ يُصَوِّرَ حِقْبَةً مِنْ ذٰلِكَ التّاريخِ، فَجَعَلَ الحادِثَةَ التّاريخِيَّةَ مِحْوَرَ القِصَّةِ وبَنَى حَوْلَها تَفاصيلَ الحَبْكَةِ. كانَ يُعْجَبُ بِأَخْبارِ الأَبْطالِ الشُّجْعانِ المُغامِرينَ، وقَدِ احْتَشَدَتْ في مُخَيِّلَتِهِ صُوَرُ هٰؤُلاءِ مُنْذُ أَنْ كانَ صَبِيًّا، يُلازِمُ الفِراشَ بِسَبَبِ المَرَضِ ويَقْضي وَقْتَهُ بَيْنَ القِراءَةِ والتَّأَمُّلِ. وزادَ مِنْ حُبِّهِ لِلمُغامَراتِ كَثْرَةُ رِحْلاتِهِ في كِبَرِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَوْضاعِهِ الصِّحِّيَّةِ الصَّعْبَةِ.

أَضِفْ إلى ذٰلِكَ ، أَنَّهُ لَيْسَ بِمَقْدورِ أَيِّ كاتِبٍ أَنْ يَنْفُذَ إلى المَغْزى الحَقيقِيِّ لِأُسْطورَةِ «الأَمير تشارلز» وأَنْ يُصَوِّرَها بِهٰذا الأُسْلوبِ الرّائِعِ ، ما لَمْ يَكُنْ صاحِبَ رُؤْيَةٍ ومَنْطِقِيَّةٍ شَفّافَةٍ كستيڤنسون. وهٰكَذا نَرى أَنَّ أَلَن ستيوارت في «**المَخْطوف**» صاحِبُ شَخْصِيَّةٍ نابِضَةٍ تُجَسِّدُ الأُسْطورَةَ بِكامِلِها . ولا يَسَعُ قارِئَ هٰذِهِ الرِّوايَةِ إلّا أَنْ يَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ وَسْطَ وَقائِعَ حَيَّةٍ تَتَحَرَّكُ حَوْلَهُ. وكَأَنَّ ستيڤنسون نَفْسَهُ كانَ على عِلْمٍ بِذٰلِكَ حينَ قالَ : «لَقَدْ تَحَرَّكَ الكِتابُ أَمامي».



المَخْطُوف

بَدَأَتْ قِصَّةُ مُغامَراتي في أَوائِلِ حَزيرانَ (يونيه) من عام ١٧٥٧.

في يَوْمٍ مُشْرِقٍ مِنْ أَيّامِ ذٰلِكَ الشَّهْرِ تَرَكْتُ بَيْتي العَتيقَ في مَدينَةِ إِسِنْدين إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ. ورافَقَني في بَعْضِ الطَّريقِ السَّيِّدُ كامْبِل، صَديقي وصَديقُ والِدي من قَبْلُ.

قالَ لي السَّيِّدُ كامْبِل في أَثْناءِ سَيْرِنا: «أَأَنْتَ آسِفٌ لِتَرْكِكَ إِسِنْدين يا روبن؟»

أَجَبْتُ قائِلًا: «لا أَدْري، يا سَيِّدي. إِسِنْدين مَكانٌ لَطيفٌ، وقَدْ كُنْتُ هُنا سَعيدًا جِدًّا. لٰكِنِ الآنَ، وقَدْ ماتَ والِدايَ كِلاهُما، عَلَيَّ أَنْ أَبْدَأَ حَياةً جَديدَةً. فأنا فَتِيٌّ وأُريدُ أَنْ أَسْتَكْشِفَ العالَمَ.»

قالَ السَّيِّدُ كامْبِل: «ما دُمْتَ قَدْ عَزَمْتَ على الرَّحيلِ، فَعَلَيَّ أَنْ أُطْلِعَكَ على ميراثِكَ، كَما أَوْصاني أَبوكَ. فَقَدْ تَرَكَ لكَ أَبوكَ رِسالَةً تَحْمِلُها إلى مالِكِ قَصْرِ آلِ شوز، القَريبِ مِنْ كْرامُنْد.»

سَأَلْتُ في دَهْشَةٍ: «وما عَلاقَتي بِقَصْرِ آلِ شوز؟ وأَيُّ ميراثٍ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟»

أَجابَ: «لا أَعْرِفُ يا روبن، لٰكِنَّكَ تَنْتَمي إلى تِلْكَ الأُسْرَةِ، فاسْمُكَ الكامِلُ هُوَ روبن فور آل شوز. وأُسْرَتُكَ هٰذِهِ اسْكُتْلَنْدِيَّةٌ عَريقَةٌ رَفيعَةُ المَقامِ.»

سَلَّمَني السَّيِّدُ كامْبِل رِسالَةَ أَبي ووَدَّعَني وَداعًا حارًّا ومَضى.



أَلْقَيْتُ نَظْرَةً على الظَّرْفِ، فعَرَفْتُ خطَّ أَبي. وقرَأْتُ ما يَأْتي: «إلى إبنيزر فور، قَصْر آلِ شوز. اِبْني، روبن، يُسَلِّمُ هٰذِهِ الرِّسالَةَ.»

أَخذَ قَلْبي يَخْفِقُ خفقانًا سَريعًا. فأَنا ابْنُ مُدَرِّسٍ اسكتْلَنْدِيٍّ فَقيرٍ، وكُنْتُ يَوْمَها في السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْري، ولَعَلَّ هٰذِهِ الرِّسالَةَ تَفْتَحُ لي بابَ المُسْتَقْبَلِ.

وَصَلْتُ أَدِنْبَرَه في صَباحِ اليَوْمِ التّالي. وتَرَكَتْ تِلْكَ المَدينَةُ الصّاخِبَةُ أَثَرَها في نَفْسي فشعَرْتُ بِالإنْشِراحِ. لٰكِنْ، مَعَ بَدْءِ رِحْلَتي غَرْبًا إلى مَدينَةِ كْرامُنْد، سُرْعانَ ما أَخَذَ ذٰلِكَ الإنْشِراحُ يَتَحَوَّلُ إلى اكْتِئابٍ. فقَدْ كُنْتُ كُلَّما سَأَلْتُ أَحَدًا عَنِ الطَّريقِ إلى قَصْرِ آلِ شوز نَظَرَ إلَيَّ نِظْرَةَ ارْتِيابٍ أو حَذَّرَني مِنَ الإقْتِرابِ مِنْ ذٰلِكَ المَكانِ.

وقابَلْتُ عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ عَجوزًا مَجْنونَةَ النَّظَراتِ، فَتَجَرَّأْتُ وسَأَلْتُها عَنِ المَكانِ الّذي أَقْصِدُ. أَشارَتِ العَجوزُ إلى قَصْرٍ قاتِمٍ مُهْمَلٍ شِبْهِ مَهْجورٍ، وصاحَتْ بِصَوْتٍ غاضِبٍ:

«ذاكَ هو قَصْرُ آلِ شوز! لَعَنَ اللهُ ساكِنيهِ!!

صاحَتْ صَيْحَتَها تِلْكَ ومَضَتْ، تارِكَةً إيّايَ في حَيْرَةٍ من أَمْرِ ذٰلِكَ النُّفورِ الَّذي يُصيبُ كُلَّ مَنْ سُئِلَ عَنْ ذٰلِكَ القَصْرِ.

اِقْتَرَبْتُ مِنَ القَصْرِ فلاحَظْتُ أَنَّ دُخانًا قَليلًا يَتَصاعَدُ مِنَ المِدْخَنَةِ، فبَعَثَ ذٰلِكَ في قَلْبي بَعْضَ الأَمَلِ.

قَرَعْتُ البابَ مَرّاتٍ، وصِحْتُ ونادَيْتُ بِضْعَ دَقائِقَ. وأَخيرًا سَمِعْتُ فَوْقي سَعْلَةً. قَفَزْتُ إلى الوَراءِ مَذْعورًا ورَفَعْتُ رَأْسي أَنْظُرُ إلى أَعْلى، فرَأَيْتُ بُنْدُقِيَّةً قَصيرَةً عَتيقَةَ الطِّرازِ مُوَجَّهَةً إلَيَّ.

كانَتِ البُنْدُقِيَّةُ في يَدِ عَجوزٍ ذابِلٍ صاحَ بي مُحَذِّرًا: «إنّها مَحْشُوَّةٌ!»

هَتَفْتُ وأَنا أَرْتَعِشُ: «أَحْمِلُ رِسالَةً إلى السَّيِّدِ إبنيزر فور.»

أَجابَني العَجوزُ: «ضَعِ الرِّسالَةَ على عَتَبَةِ البابِ وامْضِ.»



أَغْضَبَنِي تَصَرُّفُ العَجوزِ غَيْرُ اللاّئقِ فصِحْتُ: «لَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ. فإنّ عَلَيَّ أنْ أُسَلِّمَها إلى السَّيِّدِ فور شَخْصِيًّا.»

صَمَتَ العَجوزُ هُنَيْهَةً ثمّ قالَ: «ومَنْ أَنْتَ؟»

أَجَبْتُ: «أنا روبن فور.»

اِخْتَفى رَأْسُ العَجوزِ مِنَ النّافِذَةِ، ثمّ سَمِعْتُ أَقْفالَ البَوّابَةِ تُفْتَحُ. وأَخيرًا أُذِنَ لي بِالدُّخولِ.



رَأَيْتُ أَمامي عَجوزًا في نَحْوِ السِّتّينَ مِنْ عُمْرِهِ، نَحيلًا مَحْنِيَّ الظَّهْرِ، غَيْرَ حَليقٍ وذا وَجْهٍ كَالطِّينِ لَوْنًا. قادَنِي العَجوزُ إِلى المَطْبَخِ وقَدَّمَ لي حَساءً بارِدًا كَريهَ الطَّعْمِ.

فَجْأَةً مَدَّ يَدًا مُجَعَّدَةً وقالَ: «أَرِني الرِّسالَةَ.»

وبَدا لي العَجوزُ خادِمًا في ذٰلِكَ القَصْرِ الواسِعِ، فقُلْتُ: «الرِّسالَةُ لَيْسَتْ لَكَ. إِنَّها لِلسَّيِّدِ فور.»

رَدَّ العَجوزُ بِضيقٍ قائِلًا: «ومَنْ تَظُنُّني أَكونُ؟ هاتِ رِسالَةَ أَلِكْسَنْدَر.»

شَهَقْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ العَجوزَ يَذْكُرُ اسْمَ أَبي. ورَأى العَجوزُ انْدِهاشي، فكَشَفَ عَنْ أَسْنانِهِ وقالَ: «أَنا عَمُّكَ يا روبِن. أَعْطِني الرِّسالَةَ!»

فهٰذا المَخْلوقُ القَميءُ التَّعيسُ إِذًا هُوَ عَمّي. وتَمَلَّكَني شُعورٌ عارِمٌ بِالخَجَلِ.

أَمْسَكَ الرِّسالَةَ، وقَلَّبَها بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وبادَرَني فَجْأَةً بِصَوْتٍ حادٍّ قائِلًا: «أَحْسَبُكَ قَرَأْتَ الرِّسالَةَ وجِئْتَ تَطْلُبُ مِنّي مالًا؟»

أَغْضَبَتْني تِلْكَ المُلاحَظَةُ الظّالِمَةُ، فأَشَرْتُ مُهْتاجًا إِلى الرِّسالَةِ قائِلًا: «أَلا تَرى أَنَّ الخَتْمَ لا يَزالُ عَلى حالِهِ؟ صَحيحٌ أَنّي جِئْتُ آمِلًا في عَوْنِكَ، لٰكِنّي لَسْتُ مُتَسَوِّلًا، وَلا أَطْمَعُ في شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ حَقّي.»

حاوَلَ عَمّي تَهْدِئَتي بِصَوْتٍ بَدا صادِقًا، لٰكِنَّهُ لم يُفْلِحْ في كَسْبِ ثِقَتي.

قالَ: «هَدِّئْ مِنْ رَوْعِكَ. سنكونُ صَديقَيْنِ. أَنْتَ هُنا على الرَّحْبِ والسَّعَةِ. تَعالَ أُريكَ سَريرَكَ.»

أَطَعْتُ العَجوزَ وسِرْتُ مَعَهُ في الظَّلامِ إِلى غُرْفَةٍ بارِدَةٍ رَطْبَةٍ. وطَلَبْتُ شَمْعَةً، فَرَفَضَ طَلَبي قائِلًا إِنَّه يَخْشى نُشوبَ حَريقٍ.

وهٰكَذا أَمْضَيْتُ تَحْتَ سَقْفِ عَمّي لَيْلَةً بائِسَةً، نِمْتُ فيها عَلى الأَرْضِ لِأَنَّ السَّريرَ كانَ رَطْبًا رُطوبَةَ الغُرْفَةِ نَفْسِها.

فِي صَباحِ اليَوْمِ التّالي تَناوَلْتُ فُطورًا مِنَ المُهَلَّبِيَّةِ البارِدَةِ، ثُمَّ جَلَسْتُ أَنا وعَمّي لِنَتَحَدَّثَ في الأَمْرِ.

أَخَذَ عَمّي يَسْأَلُني عَنْ أُسْرَتي بِكَثيرٍ مِنَ الجَلافَةِ والصَّفاقَةِ فاسْتَبَدَّ بي الغَضَبُ ونَهَضْتُ مُزْمِعًا عَلى الرَّحيلِ. لٰكِنَّهُ تَعَلَّقَ بي وناشَدَني أَنْ أُقيمَ مَعَهُ أَيّامًا، عَلى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا تَفْضَحانِ مَقْتَهُ لي وحِقْدَهُ الشَّديدَ عَلَيَّ. وقَدْ أَرْبَكَني تَصَرُّفُهُ ذاكَ، لٰكِنّي وافَقْتُ أَخيرًا عَلى طَلَبِهِ.

مَرَّ النَّهارُ بَطيئًا، اسْتَكْشَفْتُ في أَثْنائِهِ القَصْرَ سَعيدًا بِتَخَلُّصي مِنْ صُحْبَةِ عَمّي المَقيتَةِ الجافِيَةِ.

وقَضَيْتُ ساعاتٍ في المَكْتَبَةِ أُقَلِّبُ بِسَعادَةٍ صَفَحاتِ الكُتُبِ الكَثيرَةِ هُناكَ. ورَأَيْتُ في باطِنِ غِلافِ أَحَدِ الكُتُبِ إِهْداءً كَتَبَهُ أَبي، هُوَ الآتي: «إلى أَخي إِبْنيزَر في عيدِ ميلادِهِ الخامِسِ.»

حَيَّرَتْني تِلْكَ العِبارَةُ. فَهِيَ تَنْقُضُ ما كانَ قَدْ رَسَخَ في ذِهْني مِنْ أَنَّ أَبي هُوَ الأَصْغَرُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ. ولَوْ لَمْ يَكُنِ الأَصْغَرَ لَكانَ هُوَ وارِثَ قَصْرِ آلِ شوز. لَقَدْ كُتِبَ ذٰلِكَ الإِهْداءُ بِخَطٍّ سَليمٍ لا يَصْدُرُ عَنْ طِفْلٍ دونَ الخامِسَةِ مِنْ عُمْرِهِ.

ذَهَبْتُ إلى عَمّي وسَأَلْتُهُ إِنْ كانَ أَبي قَدْ تَمَيَّزَ في طُفولَتِهِ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ.

أَجابَ: «أَلِكْسَنْدَر؟ لا، لم يَكُنْ يُدانيني فِطْنَةً ومَهارَةً.»

زادَ ذٰلِكَ في حَيْرَتي، وسَأَلْتُهُ إِنْ كانَ هُوَ وأَبي تَوْأَمَيْنِ. قَفَزَ عَمّي مِنْ مَقْعَدِهِ وأَمْسَكَني من مِعْطَفي بِخُشونَةٍ. ورَأَيْتُ شَفَتَيْهِ تَرْتَعِشانِ غَضَبًا، وبَدا يُجاهِدُ مُحاوِلًا كَتْمَ هِياجِهِ. وظَلَّ بَعْضَ الوَقْتِ يَنْتَفِضُ غَضَبًا، ثُمَّ هَدَأَ أَخيرًا وأَفْلَتَني.

خَطَرَ في بالي عِنْدَئِذٍ أَنّ عَمّي مَجْنونٌ. جَلَسْنا، واحِدُنا قُبالَةَ الآخَرِ، مِنْ دونِ أَنْ تَغيبَ عَنْ عَيْني صورَةُ هِياجِهِ المُفاجِئِ.

قُلْتُ في نَفْسي: «إِنْ لم يَكُنْ مَجْنونًا، فَإِنَّهُ يُحاوِلُ، إِذًا، أَنْ يُخْفِيَ عَنّي أَمْرًا.»

ورُحْتُ أُقَلِّبُ الأَمْرَ على وُجوهِهِ فرَسَخَ في ذِهْني أَنَّ أَبي هُوَ الأَكْبرُ بيْنَ الأَخَويْنِ وأنّ عَمّي سَلَبَني حَقِّيَ الشَّرْعِيَّ في الميراثِ. وكانَ عَمّي في هٰذِهِ الأَثْناءِ يُراقِبُني كَما يَفْعَلُ جُرَذٌ وَقَعَ في الفَخِّ. وكُنْتُ على ثِقَةٍ أَنَّهُ يَنْوي بي شَرًّا.

أَخيرًا كَسَرَ عَمّي الصَّمْتَ القَلِقَ بالكَلِماتِ الآتِيَةِ: «يا روبن، سأُعْطيكَ بَعْضَ المالِ. كُنْتُ وَعَدْتُ أَباكَ بِذٰلِكَ. سأُعْطيكَ نَحْوَ أَرْبَعينَ جُنَيهًا. أُخْرُجْ دَقيقَةً وسآتيكَ بِالمَبْلَغِ.»

أَذْهَلَني ذٰلِكَ الكَرَمُ المُفاجِئُ، وبَدا لي أَنَّهُ تَلْفيقَةٌ جَديدَةٌ مِنْ تَلْفيقاتِ عَمّي الشِّرّيرَةِ. عَلى أَنَّ الفُضولَ دَفَعَني إلى أَنْ أَتْرُكَ الغُرْفَةَ حُبًّا بِمَعْرِفَةِ ما يَنْوي فِعْلَهُ. وكانَ جَوُّ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَشْحونًا بِالضَّبابِ يُنْذِرُ بِالعَواصِفِ.



اِسْتَدْعاني عَمّي بَعْدَ دَقائِقَ، وعَدَّ بِبُطْءٍ في يَدي سَبْعَةً وثَلاثينَ جُنَيْهًا. وكانَ ما تَبَقّى مِنَ المَبْلَغِ نُقودًا مَعْدِنِيَّةً، وَقَفَ لَحْظَةً يُفَكِّرُ وهوَ يَنْظُرُ إلَيْها، ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ الجَشَعُ فَدَسَّها في جَيْبِهِ.

عَلى أَيِّ حالٍ فَقَدْ أَذْهَلَني ذٰلِكَ الانْقِلابُ في مَجْرى الأُمورِ، ورُحْتُ أَشْكُرُهُ صادِقًا عَلى هِبَتِهِ. لٰكِنَّهُ أَشارَ بِيَدِهِ إشارَةَ مَنْ لا يَطْمَعُ في الثَّناءِ، وسَأَلَني خِدْمَةً صَغيرَةً. ولَمْ أَقْوَ عَلى الرَّفْضِ عَلى الرُّغْمِ أَنّي ارْتَبْتُ في ما طَلَبَ مِنّي وشَعَرْتُ أَنَّهُ يُدَبِّرُ لي أَمْرًا.

«أَنا عَجوزٌ، يا روبِن، وأَحْتاجُ إلى عَوْنٍ في هٰذا المَنْزِلِ الواسِعِ. أَتُساعِدُني في ذٰلِكَ؟»

أَجَبْتُ: «طَبْعًا، يا سَيِّدي.»

قالَ: «فَلْنَبْدَإِ الآنَ إذًا.» ثُمَّ سَلَّمَني مِفْتاحًا صَدِئًا وهوَ يَقولُ: «إلَيْكَ مِفْتاحَ البُرْجِ الجانِبِيِّ. لا يُمْكِنُ الوُصولُ إلى ذٰلِكَ البُرْجِ إلّا مِنَ الخارِجِ، إذْ إنَّ ذٰلِكَ الجانِبَ مِنَ القَصْرِ لَمْ يَكْتَمِلْ بِناؤُهُ قَطُّ. تَجِدُ في قِمَّةِ البُرْجِ صُنْدوقًا. جِئْني بِهِ، فَإنَّ فيهِ أَوْراقًا مُهِمَّةً.»

رَفَضَ أَنْ يُعْطِيَني شَمْعَةً، لٰكِنَّهُ أَكَّدَ لي أَنَّ دَرَجَ البُرْجِ في حالَةٍ صالِحَةٍ. وعَلى الرُّغْمِ مِنْ تَسَرُّبِ القَلَقِ إلى نَفْسي فَقَدْ شَرَعْتُ في مُهِمَّتي.

كانَتِ العاصِفَةُ قَدْ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ، وسُرْعانَ ما بَدَأَتْ أَصْواتُ الرَّعْدِ تَتَوالى. رُحْتُ أَتَلَمَّسُ طَريقي في الظَّلامِ إلى أَنْ وَصَلْتُ إلى بَوّابَةِ البُرْجِ.

وبَيْنَما كُنْتُ أُديرُ المِفْتاحَ في قُفْلِ البَوّابَةِ لَمَعَ بَرْقٌ خاطِفٌ عَظيمٌ بَهَرَ بَصَري. ورَأَيْتُ نَفْسي أَدْخُلُ البُرْجَ مُتَعَثِّرًا. بَدَأْتُ بِصُعودِ دَرَجاتِ البُرْجِ الخَشَبِيَّةِ، ووَجَدْتُها، في أَوَّلِ الأَمْرِ، ثابِتَةً. ثُمَّ لاحَظْتُ في أَثْناءِ صُعودي أَنَّ الدَّرَجاتِ أَخَذَتْ تَئِنُّ وتَتَحَرَّكُ تَحْتَ قَدَمَيَّ. فَحَيَّرَني ذٰلِكَ وأَقْلَقَني.

ثُمَّ لَمَعَ ضَوْءُ البَرْقِ ثانِيَةً حامِلًا لِيَ الجَوابَ عَلى حَيْرَتي وقَلَقي. فَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسي فَوْقَ دَرَجٍ يوشِكُ أَنْ يَنْهارَ، وعَلى بُعْدِ خُطُواتٍ مِنْ حافَةِ هاوِيَةٍ عَميقَةٍ!



أَحْسَسْتُ بِالدَّمِ يَجْمُدُ في عُروقي. فَقَدْ أَرْسَلَني عَمّي عَمْدًا إلى حَتْفي. فتراجَعْتُ بِبُطْءٍ ونَزَلْتُ دَرَجاتِ البُرْجِ، وأَنا في أَشَدِّ حالاتِ الذُّعْرِ والهِياجِ.

في اللَّحْظَةِ الَّتي وَصَلْتُ فيها الأَرْضَ سالِمًا شَرَعْتُ أَبْحَثُ عَنْ عَمّي. وَجَدْتُهُ في المَطْبَخِ يَجْرَعُ الشّايَ بِعَصَبِيَّةٍ. كانَ ظَهْرُهُ لي ورَأَيْتُ كَتِفَيْهِ يَهْتَزّانِ اهْتِزازًا عَنيفًا.

وأَدْرَكْتُ أَنّه يَظُنُّ أَنَّ خُطَّتَهُ قَدْ نَجَحَتْ، وأَنَّهُ يَجْرَعُ الشّايَ احْتِفالًا بِمَوْتي المُفاجِئِ، أَوْ، وهُوَ الغالِبُ، سَعْيًا مِنْهُ إلى تَهْدِئَةِ أَعْصابِهِ.

تَسَلَّلْتُ وراءَهُ مُكَشِّرًا عَنْ أَسْناني ولَمَسْتُ كَتِفَيْهِ. فَصَعَقَتْهُ المُفاجَأَةُ وسَقَطَ عَلى الأَرْضِ مُغْمًى عَلَيْهِ، وبَدا أَشْبَهَ بِكيسٍ مِنْ عِظامٍ مِنْهُ بِكائِنٍ بَشَرِيٍّ. أَيْقَظْتُهُ مِنْ إغْمائِهِ، لكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ في حالٍ تَسْمَحُ لَهُ بِالكَلامِ. أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ إشْفاقًا لا مَحَلَّ لَهُ، فتَوَقَّفْتُ عَنْ تَخْويفِهِ، واكْتَفَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِحَجْزِهِ في غُرْفَتِهِ وإقْفالِ البابِ عَلَيْهِ.

في صَباحِ اليَوْمِ التالي دَخَلْتُ غُرْفَةَ عَمّي مُبْتَسِمًا، وقُلْتُ: «والآنَ، يا سَيِّدي، هَلْ لَكَ أَنْ تُفَسِّرَ لي مَعْنى فِعْلَتِكَ النَّكْراءِ مَساءَ أَمْسِ؟»

رَدَّ عَلَيَّ بِصَوْتٍ واهِنٍ قائِلًا إنَّها كانَتْ مَزْحَةً. فَضَحِكْتُ ضِحْكَةً عالِيَةً مِنْ ذٰلِكَ العُذْرِ الواهي. عِنْدَئِذٍ قالَ:

«لِيَكُنْ ما تُريدُ. سَأَشْرَحُ لَكَ الأَمْرَ كُلَّهُ بَعْدَ وَجْبَةِ الصَّباحِ.»

وكانَ واضِحًا أَنَّهُ يُحاوِلُ أَنْ يَكْسَبَ وَقْتًا يُعِدُّ فيهِ كِذْبَةً أُخْرى. وفي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعْنا صَوْتَ قَرْعٍ عَلى البابِ. فَتَحْتُ البابَ فَوَجَدْتُ أَمامي فَتًى نَحيلًا شاحِبَ الوَجْهِ.



كانَ الفتى يَعْمَلُ خادِمًا في سَفينَةِ كوفِنَنْت الشِّراعِيَّةِ ، وقَدْ جاءَ يَحْمِلُ رِسالَةً إلى عَمّي مِنْ قُبْطانِ السَّفينَةِ السَّيِّدِ هوزِن.

قَرَأَ عَمّي الرِّسالَةَ ثُمَّ قالَ : «إنَّ لَدَيَّ عَمَلًا مَعَ القُبْطانِ هوزِن. إنْ كُنْتَ تَرْغَبُ في مُرافَقَتي إلى السَّفينَةِ ، فسنَقومُ ، أنا وأَنْتَ ، بَعْدَ إنْجازِ عَمَلي مَعَ القُبْطانِ ، بِزِيارَةِ السَّيِّدِ رَنْكيلَر. لَقَدْ كانَ السَّيِّدُ رَنْكيلَر صَديقًا مُخْلِصًا مِنْ أَصْدِقاءِ أَبيكَ ، وسيُعْطيكَ إجاباتٍ شافِيَةً عَنْ أَسْئِلَتِكَ كُلِّها.»

كُنْتُ ، بِطَبيعَةِ الحالِ ، مُتَلَهِّفًا لِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ رَنْكيلَر ، كَما كُنْتُ راغِبًا في الصُّعودِ إلى مَتْنِ سَفينَةٍ واسْتِكْشافِ داخِلِها ، فَوافَقْتُ راضِيًا عَلى ما اقْتَرَحَ عَمّي.

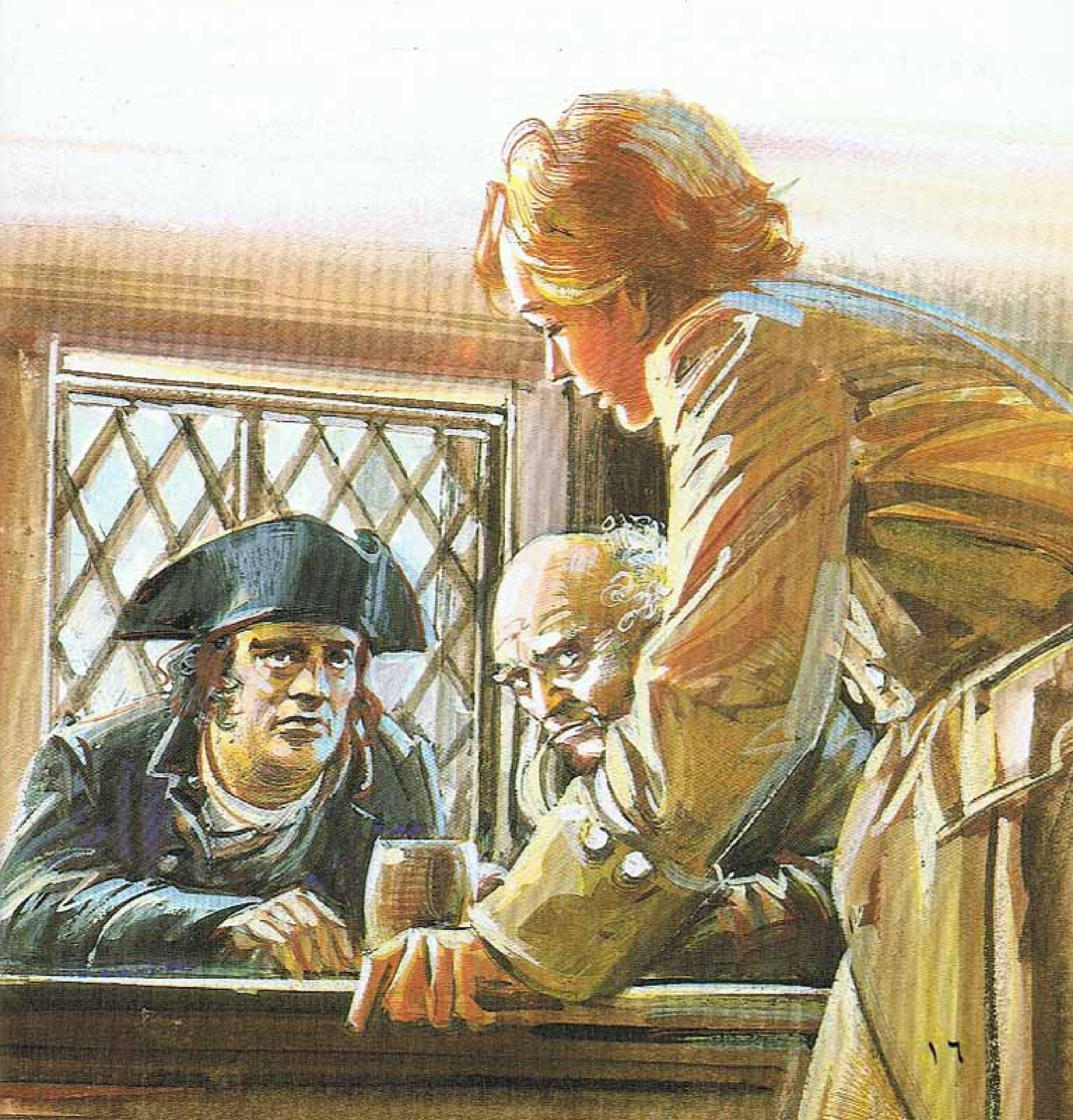
ظَلَّ عَمّي صامِتًا طَوالَ الطَّريقِ ، لٰكِنَّ صُحْبَةَ الفَتى سَلَّتْني. كانَ اسْمُهُ رانْسُم ، وقَدْ أَعْطاني وَصْفًا نابِضًا بِالحَياةِ لِلصُّعوباتِ الَّتي يَعيشُها الإنْسانُ عَلى مَتْنِ سَفينَةِ الكوفِنَنْت. كَما وَصَفَ لي طِباعَ البَحّارَةِ الشَّرِسَةَ ، وبِخاصَّةٍ طِباعُ الضّابِطِ الأَوَّلِ ، السَّيِّدِ شون ، الَّذي كانَ قَدْ ضَرَبَ الفَتى في ذٰلِكَ الصَّباحِ نَفْسِهِ ضَرْبًا مُبَرِّحًا. عَلى أَنَّ الفَتى كانَ ، عَلى الرُّغْمِ مِنْ ذٰلِكَ ، يُؤْثِرُ حَياتَهُ القاسِيَةَ تِلْكَ عَلى عيشَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ هادِئَةٍ فَوْقَ البَرِّ.

عِنْدَما وَصَلْنا إلى بَلْدَةِ كُوينْزفَري القَريبَةِ رَأَيْتُ الكوفِنَنْت راسِيَةً عَلى بُعْدِ نِصْفِ ميلٍ مِنَ الشّاطِئِ. وكانَ رانْسُم قَدْ أَخْبَرَني أَنَّ السَّفينَةَ تَحْمِلُ رَقيقًا إلى أَميركا الشَّمالِيَّةِ. ورَأَيْتُ أَلْوانَ السَّفينَةِ القاتِمَةَ وشَكْلَها القَبيحَ فَصَدَّقْتُ ما رَواهُ لي صاحِبي. وعَزَمْتُ عَلى أَلّا تَطَأَ قَدَمايَ مَتْنَ تِلْكَ السَّفينَةِ المُرْعِبَةِ.



قابَلْنا القُبْطانَ هوزن في نُزُلٍ واقِعٍ في وَسَطِ البَلْدَةِ. كانَ رَجُلًا طَويلًا داكِنَ البَشَرَةِ، صارِمَ الهَيْئَةِ. وكانَ يَجْلِسُ إلى جانِبِ مِدْفَأَةٍ مُسْتَعِرَةٍ، وقَدْ لَبِسَ سُتْرَةَ بَحْرٍ كاسِيَةً وطاقِيَّةً تُغَطِّي أُذُنَيْهِ. ورأى الدَّهْشَةَ في عُيونِنا، فأَوْضَحَ أَنَّهُ أَمْضى في البِلادِ الحارَّةِ سِنينَ كَثيرَةً فَلَمْ يَعُدْ يَحْتَمِلُ الجَوَّ البارِدَ.

آثَرْتُ أَنْ أَتْرُكَ الرَّجُلَيْنِ إلى عَمَلِهِما، وأَسْعَدَني أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ حَرارَةِ الغُرْفَةِ الخانِقَةِ. ومَشَيْتُ أنا ورانْسُم صَوْبَ الميناء، وتَوَقَّفْنا في مَقْهًى نَشْرَبُ عَصيرَ الفاكِهَةِ.



ورَغِبْتُ في أَنْ أَسْمَعَ رَأْيَ رَجُلٍ مُحايدٍ في عَمّي ، فَتَحَدَّثْتُ مَعَ صاحِبِ المَقْهى . وبَدَأْتُ بِأَنْ سَأَلْتُهُ إنْ كانَ يَعْرِفُ السَّيِّدَ رَنْكيلَر .

أَجابَ : «نَعَمْ أَعْرِفُهُ . إِنَّهُ رَجُلٌ صادِقٌ حَقًّا .»

ثُمَّ سَأَلْتُهُ عَنْ رَأْيِهِ في عَمّي .

أَجابَ : «إِنَّهُ عَجوزٌ شِرّيرٌ مَكْروهٌ . كانَ فيما مَضى رَجُلًا صالِحًا إلى أَنْ شَوَّهَتِ الإشاعاتُ سُمْعَتَهُ .»

أَلْهَبَ ذٰلِكَ فُضولي ، فَسَأَلْتُ : «أَيُّ إشاعاتٍ؟»

أَجابَ صاحِبُ المَقْهى ، وهُوَ يَتْرُكُني إلى زَبونٍ آخَرَ : «يُقالُ إِنَّهُ قَتَلَ أَخاهُ الأَكْبَرَ لِيَسْتَوْلِيَ عَلى قَصْرِ آلِ شوز .»

قُلْتُ في نَفْسي : «إِذًا كُنْتُ عَلى حَقٍّ ، فأَنا الوَريثُ الشَّرْعِيُّ لِقَصْرِ آلِ شوز . وعَمّي يُحاوِلُ سَلْبَ هٰذا الميراثِ مِنّي .»

عُدْتُ إلى النُّزُلِ وقَدْ عَقَدْتُ العَزْمَ عَلى أَنْ أَكْتُمَ شُكوكي إلى أَنْ أَرى السَّيِّدَ رَنْكيلَر . وقَدِ اسْتَقْبَلَني القُبْطانُ هوزِن في النُّزُلِ اسْتِقْبالًا وِدِّيًّا ، ووَضَعَ ذِراعَهُ في ذِراعي وكَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُسِرَّ لي بِشَيْءٍ ، وقالَ :

«أَنْتَ شابٌّ لَطيفٌ . تَعالَ مَعي فأُرِيَكَ السَّفينَةَ ونَشْرَبَ الشّايَ ونَتَحَدَّثَ .»

أَجَبْتُ : «شُكْرًا ، لٰكِنّي ذاهِبٌ مَعَ عَمّي لِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ رَنْكيلَر .»

قالَ : «أَخْبَرَني عَمُّكَ بِأَمْرِ هٰذِهِ الزِّيارَةِ ، لٰكِنَّ السَّفينَةَ سَتُعيدُكَ إلى المَدينَةِ وتُنْزِلُكَ إلى البَرِّ قَريبًا جِدًّا مِنْ مَنْزِلِ السَّيِّدِ رَنْكيلَر .»

ثُمَّ مالَ عَلَيَّ فَجْأَةً وهَمَسَ في أُذُني قائِلًا : «اِحْذَرْ عَمَّكَ – إِنَّهُ رَجُلٌ خَطِرٌ . تَعالَ مَعي إلى مَتْنِ السَّفينَةِ فأُطْلِعَكَ عَلى خُطَّةٍ سِرِّيَّةٍ يُعِدُّها لِقَتْلِكَ !»

حَسِبْتُ أَنّي وَجَدْتُ صَديقًا أَمينًا ، فوافَقْتُ عَلى الذَّهابِ إلى سَفينَةِ الكوفِنَنْت . ورَكِبَ عَمّي إِبَنيزَر ورانْسُم إلى جانِبي في القارِبِ الَّذي سَيَحْمِلُنا إلى السَّفينَةِ .

عِنْدَما وَصَلْنا السَّفينَةَ رُفِعْتُ إلى مَتْنِها بِسُرْعَةٍ ، فسَبَّبَتْ لي تِلْكَ الحَرَكَةُ المُفاجِئَةُ دُوارًا خَفيفًا ، وتَرَنَّحْتُ قَليلاً . ثُمَّ الْتَفَتُّ حَوْلي فَلَمْ أَرَ عَمّي ، فقُلْتُ :

«أَيْنَ عَمّي إبنيزَر؟»

فجاءَني صَوْتُ القُبْطانِ هوزِن مِنْ خَلْفُ يَقولُ : «صَحيحٌ ، أَيْنَ هُوَ؟» فالْتَفَتُّ أُواجِهُهُ .

كانَ وَجْهُهُ يَقْطُرُ شَرًّا ولُؤْمًا وكانَ صَوْتُهُ جافًّا قاسِيًا .

اِنْدَفَعْتُ إلى جانِبِ السَّفينَةِ في ذُعْرٍ ، فرَأَيْتُ عَمّي يَعودُ إلى الشّاطِئِ في القارِبِ .

أَحْسَسْتُ بِالضَّياعِ ، وصِحْتُ : «النَّجْدَةَ ! النَّجْدَةَ ! سيَقْتُلونَني ! »

اِلْتَفَتَ عَمّي نَحْوي ، فرَأَيْتُ عَلى وَجْهِهِ الشِّرّيرِ ابْتِسامَةَ النَّصْرِ الَّتي انْطَبَعَتْ في مُخَيِّلَتي إلى الأَبَدِ . ثُمَّ شَعَرْتُ بِضَرْبَةٍ عَنيفَةٍ عَلى مُؤَخَّرَةِ رَأْسي ، رافَقَها وَميضٌ أَبْيَضُ عَظيمٌ ، ثُمَّ سَوادٌ غِبْتُ مَعَهُ عَنِ الوَعْيِ .

عِنْدَما أَفَقْتُ مِنْ إغْمائي كُنْتُ أَشْعُرُ بِغَثَيانٍ ، وكُنْتُ مُقَيَّدًا في مَكانٍ بارِدٍ ومُظْلِمٍ . لا أَذْكُرُ كَمْ مِنَ الأَيّامِ بَقيتُ مُحْتَجَزًا في السَّفينَةِ ، وَحيدًا وخائِفًا . لَقَدْ أَنْهَكَتِ الحُمّى جَسَدي وأَضْنَتِ الكَوابيسُ المُرْعِبَةُ فِكْري وعَذَّبَتْني .

ثُمَّ نُقِلْتُ ، بِناءً عَلى أَوامِرِ طَبيبِ السَّفينَةِ ، السَّيِّدِ رايَتْش ، إلى العَنْبَرِ الأَمامِيِّ . وبَدَأْتُ هُناكَ أَسْتَعيدُ عافِيَتي بِبُطْءٍ ، وأَتَعَرَّفُ إلى البَحّارَةِ وحَياةِ البَحْرِ . وبَدَأْتُ ، كَذلِكَ ، أُفَكِّرُ في ما يَنْتَظِرُني مِنْ مَصيرٍ . فَقَدْ عَلِمْتُ أَنّي سأُباعُ في أَميركا بَيْعَ الرَّقيقِ .



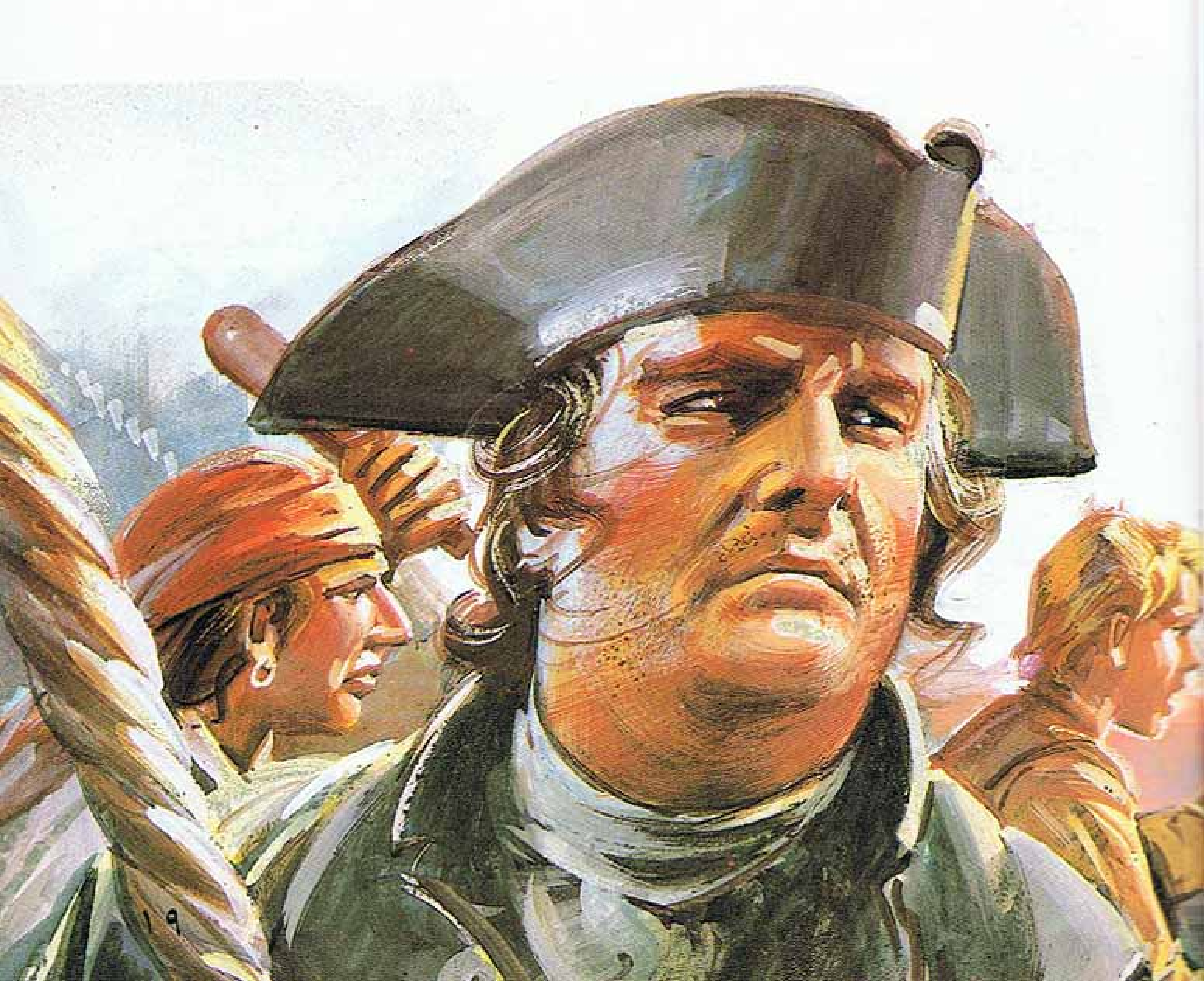
ذاتَ لَيْلَةٍ سرَتْ بيْنَ البَحارَةِ إشاعةٌ تَردَّدَتْ في كَلِماتٍ، هِيَ: «شون قَضى عَلَيْهِ أخيرًا!»

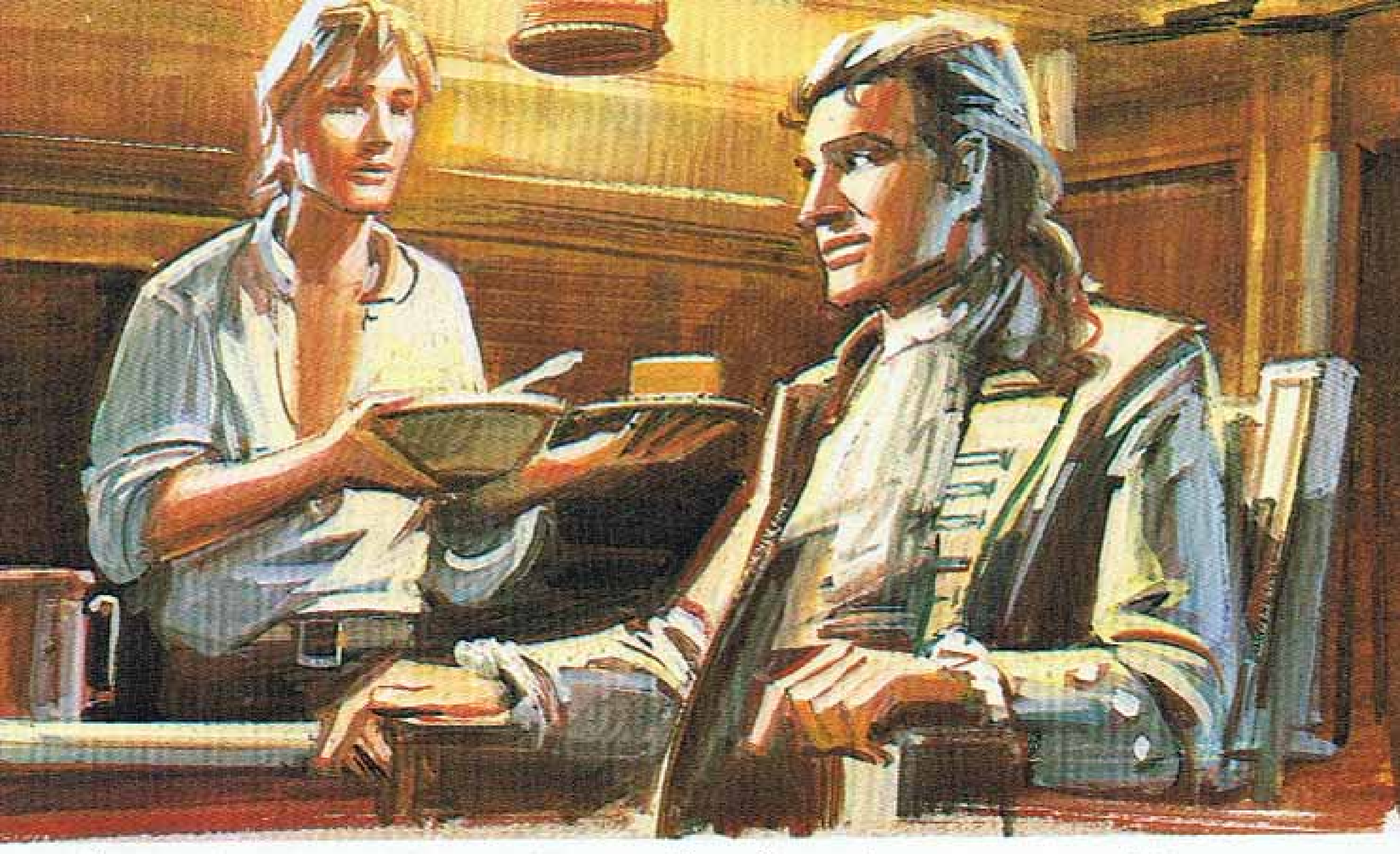
وسُرْعانَ ما تَبَيَّنَ أنَّ شون هاجَمَ في إحْدى نَوْباتِ غَضَبِهِ الفَتى رانْسُم وانْهالَ عَلَيْهِ رَفْسًا ولكْمًا. ثُمَّ جاءَني القُبْطانُ يُحَدِّثُني بِلَهْجَةٍ مازِحَةٍ مُفاجِئَةٍ. وقالَ:

«أُريدُكَ أن تَخْدِمَ في السَّفينَةِ مَحَلَّ رانْسُم.»

خَرَجْتُ مِنَ العَنْبَرِ الّذي أنا فيهِ فَرَأَيْتُ رَجُلَيْنِ يَحْمِلانِ جَسَدَ رانْسُم. تَفَرَّسْتُ في الرَّأْسِ المُتَدَلّي فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ صُفْرَةَ المَوْتِ.

رَآني شون، الّذي كانَ قَريبًا مِنّي، أتَفَرَّسُ بِحُرْقَةٍ في صَديقِيَ المَيْتِ، فانْتَهَرَني قائِلًا: «أُغْرُبْ عَنْ وَجْهي!» فجَرَيْتُ مَذْعورًا.





شَغَلَتْني مُهِمّاتي الجَديدَةُ في الأَيّامِ الَّتي تَلَتْ تِلْكَ الحادِثَةَ. وعَلى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّها كانَتْ مُهِمّاتٍ شاقَّةً ومُذِلَّةً فَقَدْ أَحْسَنَتْ لي مِنْ حَيْثُ إِنَّها صَرَفَتْني عَنِ التَّفْكيرِ في مُسْتَقْبَلي القاتِمِ.

ولَمّا كانَتِ الرِّياحُ مُعاكِسَةً لَنا فَقَدْ تَقَدَّمَتِ السَّفينَةُ تَقَدُّمًا بَطيئًا. وَفي اليَوْمِ العاشِرِ مِنْ بَدْءِ رِحْلَتِنا كانَ الجَوُّ بارِدًا ضَبابِيًّا، وكانَتِ الرُّؤْيَةُ سَيِّئَةً. وبَيْنَما أَنا مُنْهَمِكٌ في أَشْغالي سَمِعْتُ مَنْ يَصْرُخُ قائِلًا: «أُصيبَتِ السَّفينَةُ.»

اِنْدَفَعَ البَحّارَةُ جَميعًا إلى جانِبِ السَّفينَةِ يَسْتَطْلِعونَ الأَمْرَ، وقَدْ دَخَلَ في رَوْعِهِمْ أَنَّ سَفينَتَهُمْ قَدِ اصْطَدَمَتْ بِالصُّخورِ. لٰكِنْ تَبَيَّنَ أَنَّها اصْطَدَمَتْ بِمَرْكَبِ صَيْدٍ صَغيرٍ فَحَطَّمَتْهُ تَحْطيمًا.

وقَدِ ابْتَلَعَتِ الأَمْواجُ رِجالَ مَرْكَبِ الصَّيْدِ كُلَّهُمْ، ما عَدا واحِدًا مِنْهُمْ رَمى نَفْسَهُ عَلى حَبْلٍ مِنَ الحِبالِ الَّتي قَذَفْنا بِها إلى البَحْرِ، فَنَجا بِحَياتِهِ.

أَنْزَلَ القُبْطانُ الرَّجُلَ الناجِيَ في العَنْبَرِ الخَلْفِيِّ وأَمَرَ لَهُ بِكوبٍ مِنَ الشّايِ السّاخِنِ يُنْعِشُهُ. وبَدا الرَّجُلُ ضَئيلَ الجِسْمِ رَشيقًا، ذا شَخْصِيَّةٍ آسِرَةٍ، أَنيقًا في مَلْبَسِهِ وتَصَرُّفاتِهِ. وكانَ يَتَقَلَّدُ سَيْفًا ويَتَمَنْطَقُ بِمُسَدَّسَيْنِ رَشيقَيْنِ لامِعَيْنِ.

عَرَفْتُ مِمّا سَمِعْتُ مِنْ حَديثِهِ مَعَ القُبْطانِ أَنَّهُ مِنْ أَنْصارِ آلِ سْتيوارْت ، وهِيَ الأُسْرَةُ الاسْكُتْلَنْدِيَّةُ الَّتي كانَتْ تَسْعى لِاسْتِعادَةِ العَرْشِ البَريطانِيِّ وانْتِزاعِهِ مِنَ المَلِكِ جورج الأَوَّلِ مَلِكِ إنْكِلْترا واسْكُتْلَنْدا . وبَدا واضِحًا أَنَّ ذٰلِكَ الرَّجُلَ كانَ هارِبًا إلى فَرَنْسا عِنْدَما غَرِقَ مَرْكَبُهُ .

عَرَضَ الرَّجُلُ عَلى القُبْطانِ هوزِن مَبْلَغًا كَبيرًا مِنَ المالِ لِقاءَ نَقْلِهِ إلى فَرَنْسا ، لٰكِنَّ القُبْطانَ رَفَضَ عَرْضَهُ . ثُمَّ تَوَصَّلَ الرَّجُلانِ أَخيرًا إلى اتِّفاقٍ يَقْضي بِأَنْ يُنْقَلَ الغَريبُ إلى مَكانٍ مِنْ ساحِلِ اسْكُتْلَنْدا ذَكَرَ أَنَّ لَهُ فيهِ أَصْدِقاءَ ، عَلى أَنْ يَنالَ القُبْطانُ لِقاءَ ذٰلِكَ سِتّينَ جُنَيْهًا .

تَرَكَ الغَريبُ في نَفْسي ، بِرَشاقَةِ مَظْهَرِهِ وحُسْنِ تَصَرُّفِهِ ، أَثَرًا طَيِّبًا . فَقُلْتُ وأَنا أُقَدِّمُ لَهُ طَعامَ العَشاءِ : «أَنْتَ إذًا مِنْ أَنْصارِ آل سْتيوارْت ؟» وكُنْتُ بِذٰلِكَ أَسْعَى إلى مُبادَلَتِهِ الحَديثَ .

أَجابَ ، وهُوَ يَشْرَعُ في تَناوُلِ الطَّعامِ : «وأَنْتَ ، كما يُوحي لي وَجْهُكَ البائِسُ ، واحِدٌ مِنَ الرَّعاعِ أَتْباعِ المَلِكِ جورج .»

وكُنْتُ فِعْلًا مِنْ أَنْصارِ المَلِكِ جورج لٰكِنّي لَمْ أُرِدْ تَحَدِّيَهُ ، فَأَجَبْتُ إجابَةً غامِضَةً قائِلًا :

«بَيْنَ بَيْنَ .»

فَأَضافَ الغَريبُ بِلَهْجَةٍ مَرِحَةٍ : «يَعْني لا شَيْءَ . يا سَيِّدُ بَيْنَ بَيْنَ امْلَأْ لي كوبَ العَصيرِ .»

قُلْتُ : «سآتي بِزُجاجَةٍ جَديدَةٍ يا سَيِّدي .» ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى غُرْفَةِ القُبْطانِ لِآتِيَ مِنْهُ بِمِفْتاحِ عَنْبَرِ المُؤَنِ .

وبَيْنَما أَنا أَهُمُّ بِدُخولِ الغُرْفَةِ تَناهَتْ إلى مَسْمَعي أَصْواتٌ خافِتَةٌ أَثارَتْ شُكوكي .

اِقْتَرَبْتُ ما أَمْكَنَني زاحِفًا فَرَأَيْتُ السَّيِّدَ رايَتْش والقُبْطانَ هوزِن يَتَآمَرانِ : لِقَتْلِ الغَريبِ وسَلْبِهِ أَمْوالَهُ .

اِسْتَبَدَّ بي الغَضَبُ والذُّعْرُ في آنٍ واحِدٍ. لٰكِنْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أُحافِظَ عَلى هُدوئي، فدَخَلْتُ الغُرْفَةَ وسَأَلْتُ عَنِ المِفْتاحِ، وكَأَنّي لم أَسْمَعْ شَيْئًا.

هَتَفَ رايَنْش: «هٰذِهِ فُرْصَتُنا! روبِن قادِرٌ على أَنْ يَأْتِيَنا بِالسِّلاحِ.»

وافَقَ القُبْطانُ عَلى ذٰلِكَ، وقالَ وهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَيَّ: «نعَم، فذٰلِكَ الرَّجُلُ المُتَهَوِّرُ الطّائِشُ خَطَرٌ على السَّفينَةِ. يا روبِن، نُريدُكَ أَنْ تَأْتِيَنا بِأَسْلِحَتِنا وبِالبارودِ مِنْ خِزانَةِ السِّلاحِ في العَنْبَرِ الخَلْفِيِّ. فَأَنْتَ أَقَلُّ البَحّارَةِ إِثارَةً لِلشُّكوكِ، ويَسْهُلُ عَلَيْكَ لِذٰلِكَ أَنْ تَأْتِيَنا بِسِلاحِنا. إذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ أُعْطيكَ بَعْضَ المالِ وأَعِدُكَ أَنْ أَسْعى جَهْدي لِمُساعَدَتِكَ عِنْدَما نَصِلُ إلى أَميركا.»

تَظاهَرْتُ بِالقَبولِ، لٰكِنّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنّي لَنْ أَكونَ أَبَدًا شَريكًا في جَريمَةِ قَتْلٍ. لِذٰلِكَ، فإِنّي، عِنْدَما عُدْتُ إلى العَنْبَرِ الخَلْفِيِّ، أَطْلَعْتُ الغَريبَ في الحالِ عَلى الخَطَرِ الَّذي يُحيقُ به وتَعَهَّدْتُ بِمُسانَدَتِهِ.

تَصافَحْنا وتَعارَفْنا. أَخْبَرَني أَنَّ اسْمَهُ الحَقيقِيَّ أَلَن ستيوارْت، لٰكِنَّ أَصْدِقاءَهُ يَدْعونَهُ أَلَن بْرِك. ولَمْ يَكُنْ أَمامَنا مُتَّسَعٌ لِحَديثٍ طَويلٍ فسُرْعانَ ما سيَكْتَشِفُ القُبْطانُ عِصْياني لَهُ ويَبْدَأُ بِالهُجومِ.

اِنْهَمَكْنا سَريعًا في تَفَحُّصِ أَسْلِحَتِنا ومَواقِفِنا الدِّفاعِيَّةِ. كانَ بَيْنَ أَيْدينا عَدَدٌ مِنَ المُسَدَّساتِ طُلِبَ إِلَيَّ أَنْ أَحْشُوَها. وامْتَشَقَ أَلَن سَيْفَهُ راغِبًا عَنِ اسْتِعْمالِ غَيْرِهِ مِنَ الأَسْلِحَةِ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وسَأَلَني:

«ما عَدَدُ خُصومِنا؟»

قُلْتُ بَعْدَ لَحْظَةِ تَفْكيرٍ: «خَمْسَةَ عَشَرَ.»

صَفَرَ صَفْرَةً خَفيضَةً، وقالَ: «يَكْفونَنا ويَزيدونَ! سأُدافِعُ عَنِ البابِ المَفْتوحِ، بَيْنَما تُدافِعُ أَنْتَ عَنِ الكُوَّةِ وذٰلِكَ البابِ الجانِبِيِّ المُقْفَلِ. لا تُطْلِقِ النّارَ في هٰذا الاِتِّجاهِ لِئَلّا تُصيبَني.»

أَسْرَعْتُ إلى مَوْقِعي. كانَ قَلْبي يَخْفِقُ خَفَقانًا شَديدًا، وكُنْتُ أَرْتَجِفُ تَهَيُّبًا. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّنا قِلَّةٌ، لٰكِنّي كُنْتُ مُقْتَنِعًا أَنَّ المَوْتَ دِفاعًا عَنِ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ المَوْتِ عَبْدًا.

وَصَلَ القُبْطانُ فَشَهَرَ أَلَن سَيْفَهُ في وَجْهِهِ، فلم يَخَفِ القُبْطانُ ووَقَفَ وِقْفَةَ ثَباتٍ وقالَ بِلَهْجَةِ المُسْتاءِ:

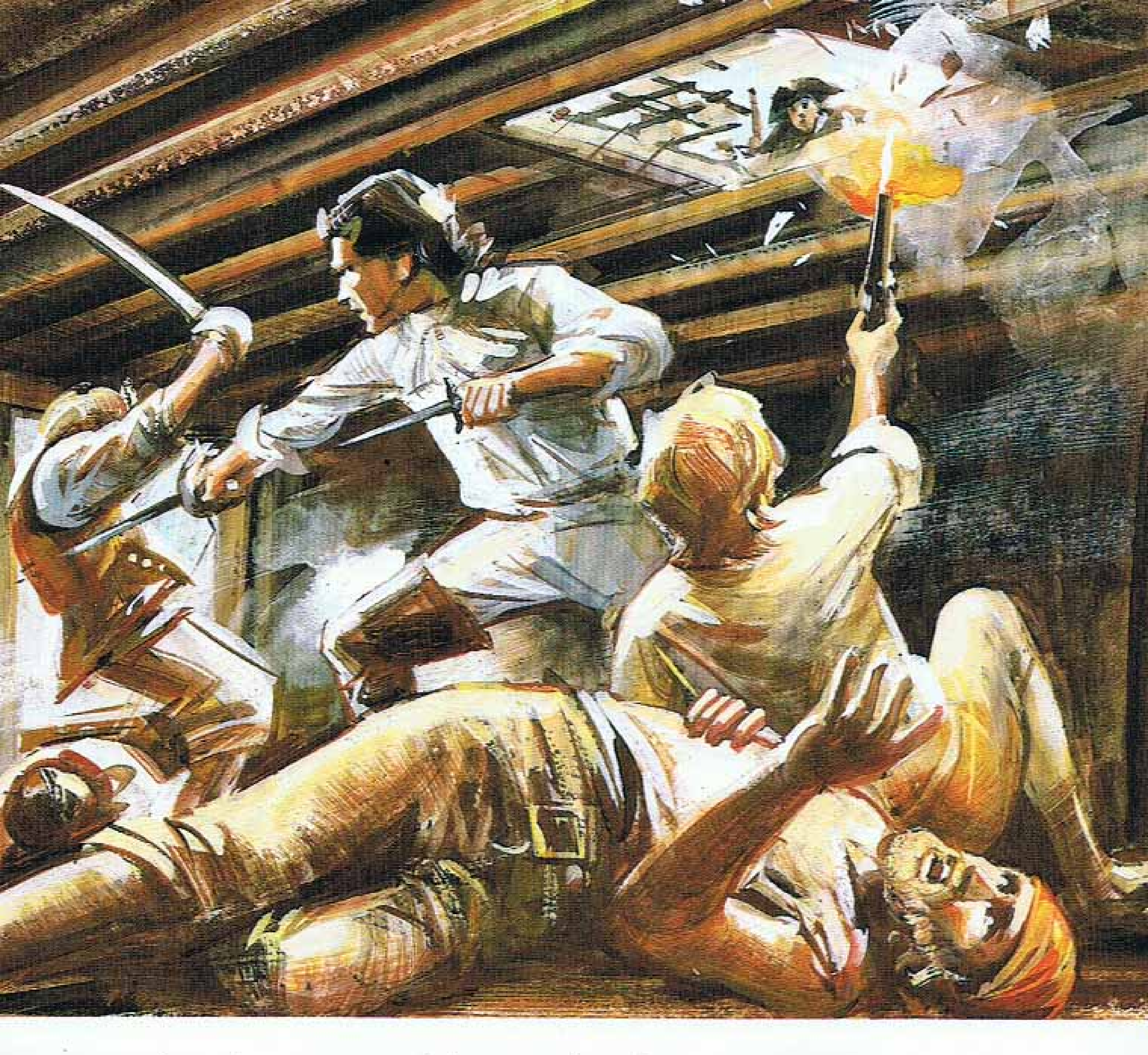
«أَهٰذا جَزاءُ تَرْحيبي بِكَ؟»

سارَعَ أَلَن يَقولُ: «أُهْجُمْ بِرِجالِكَ، يا سَيِّدي! لَقَدْ صَرَعَ هٰذا السَّيْفُ الكَثيرينَ مِنْ رَعاعِ المَلِكِ، ولَنْ يُحْجِمَ الآنَ.»

لَمْ يَقُلِ القُبْطانُ لِلغَريبِ شَيْئًا آخَرَ، لٰكِنَّهُ رَمَقَني بِنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ كَريهَةٍ، وقالَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ مَشْحونٍ بِالوَعيدِ:

«لَنْ أَنْسى فِعْلَتَكَ أَبَدًا، يا روبِن.» ثُمَّ اسْتَدارَ وَمَضى. أَمّا أَنا فَقَدْ جَمَدَ الدَّمُ في عُروقي.





وسُرْعانَ ما وَصَلَ إلَيْنا صَليلُ السُّيوفِ الَّتي كانَتْ تُوَزَّعُ عَلى البَحّارَةِ، ثُمَّ فَجْأَةً انْقَضَّ عَلَيْنا الرِّجالُ.

وكانَ أَوَّلَ القَتْلى السَّيِّدُ شون الَّذي قادَ الهُجومَ. فَقَدْ تَنَحّى صَديقي الجَديدُ جانِبًا في حَرَكَةٍ سَريعَةٍ بارِعَةٍ وغَرَزَ سَيْفَهُ في جَسَدِ خَصْمِهِ.

ورَأَيْتُ في مَقْتَلِ شون انْتِقامًا لِجَريمَةِ قَتْلِ صَديقي رانْسُم.

ثُمَّ حاوَلَ خَمْسَةُ رِجالٍ تَحْطيمَ البابِ المُقْفَلِ. وعِنْدَما تَمَكَّنوا مِنْ إحْداثِ فُتْحَةٍ فيه أَطْلَقْتُ النّارَ عَشْوائِيًّا عَبْرَ الفُتْحَةِ فَعَلَتْ صَرْخَةُ أَلَمٍ مُدَوِّيَةٌ. لَمْ أَكُنْ قَدْ أَطْلَقْتُ نارًا مِنْ قَبْلُ، وَلا حَمَلْتُ مُسَدَّسًا، لٰكِنّي كُنْتُ مَذْعورًا وأُدافِعُ عَنْ حَياتي.

سادَ الصَّمْتُ فَجْأَةً. فقدِ ارْتَدَّ الأَعْداءُ لِيُلَمْلِموا جِراحَهُمْ. ووَقَفْنا وَحْدَنا في جَوِّ الغُرْفَةِ العابِقِ بِالدُّخانِ ورائِحَةِ البارودِ اللاذِعَةِ، وقَدْ تَلَطَّخَ المَكانُ حَوْلَنا بِالدَّمِ. عَلى أَيِّ حالٍ، كُنّا نَعْلَمُ أَنَّ انْتِصارَنا غَيْرُ نِهائِيٍّ، فرُحْنا نَنْتَظِرُ هُجومًا جَديدًا.

وسُرْعانَ ما بَدَأَ الهُجومُ المُنْتَظَرُ، وراحَ البَحّارَةُ يُهاجِمونَنا من جِهَتَيِ الكُوَّةِ والبابِ الأَمامِيِّ في وَقْتٍ واحِدٍ. كُنْتُ مُسْتَعِدًّا لِهٰذا الهُجومِ، وصَرَعْتُ رَجُلَيْنِ كانا يَتَدَلَّيانِ مِنَ الكُوَّةِ إلى داخِلِ الغُرْفَةِ. وكانَ أَلَن في هٰذِهِ الأَثْناءِ يَتَصَدَّى لِخُصومِهِ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ، مُوَجِّهًا ضَرَباتِ سَيْفِهِ البَتّارِ في كُلِّ اتِّجاهٍ. أَخيرًا اسْتَدارَ البَحّارَةُ عَلى أَعْقابِهِمْ، وقَدْ نالَهُمْ ما نالَهُمْ، ووَلَّوْا هارِبينَ.

مَلأَ الاِنْتِصارُ أَلَن نَشْوَةً ومَرَحًا. ونَظَمَ في نَشْوَةِ زَهْوِهِ أُغْنِيَةً بِلُغَةِ السُّكّانِ المَحَلِّيِّينَ في المُرْتَفَعاتِ الاسْكُتْلَنْدِيَّةِ يَصِفُ فيها ذٰلِكَ الاِنْتِصارَ. وعَلِمْتُ فيما بَعْدُ، عِنْدَما تَرْجَمَ لي كَلِماتِ تِلْكَ الأُغْنِيَةِ، أنّه لَمْ يَأْتِ عَلى ذِكْري فيها!

أَمّا أَنا فقَدْ تَذَكَّرْتُ، عِنْدَما هَدَأَ ضَجيجُ المَعْرَكَةِ، أَنّي قَتَلْتُ ثَلاثَةَ رِجالٍ، فشَعَرْتُ بِالغَثَيانِ. ورُحْتُ فَجْأَةً أَرْتَجِفُ وأَبْكي كَما يَبْكي الأَطْفالُ.

نَسِيَ أَلَن مِهْرَجانَهُ وأَحاطَ كَتِفَيَّ بِذِراعِهِ، وقالَ لي إنّي فَتًى شُجاعٌ ورَفيقٌ مُعْتَمَدٌ. وبَعْدَ أَنْ طَيَّبَ خاطِري قَليلًا رَأى أَنْ أَنامَ قَليلًا لِأُريحَ جَسَدي وفِكْري، بَيْنَما يَقومُ هُوَ بِنَوْبَةِ الحِراسَةِ الأولى.

بَدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ صامِتَةً صَمْتَ القُبورِ. وكُنْتُ أَنا وأَلَن نَتَناوَبُ الحِراسَةَ كُلَّ ثَلاثِ ساعاتٍ. وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي جَلَسْنا، نَحْنُ الاِثْنَيْنِ، نَتَناوَلُ طَعامَ الفُطورِ وقَدْ غَلَبَنا الاِنْشِراحُ. فإنَّ سَيْطَرَتَنا عَلى العَنْبَرِ الخَلْفِيِّ تَعْني أَنَّنا نُسَيْطِرُ عَلى أَحْسَنِ المَآكِلِ وأَفْضَلِ سِلاحٍ فَوْقَ مَتْنِ السَّفينَةِ.

وفي أَثْناءِ وَجْبَةِ الصَّباحِ تِلْكَ أَكَّدَ أَلَن صَداقَتَنا بِأَنْ قَدَّمَ لي زِرًّا مِنْ أَزْرارِ مِعْطَفِهِ الفِضِّيَّةِ، وقالَ: «اِحْتَفِظْ بِهِ تَذْكارًا لِأَحْداثِ اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ. إذا أَرَيْتَ هٰذا الزِّرَّ في أَيِّ مَكانٍ فسَيَمُدُّ لَكَ أَصْدِقاءُ أَلَن بْرِك يَدَ العَوْنِ.»

كانَ في زَهْوَةِ غُرورِهِ تِلْكَ بادِيَ الجِدِّ والوَقارِ ، وقَدْ بَذَلْتُ جَهْدًا شاقًّا كي لا أَنْفَجِرَ ضاحِكًا. وتَدَبَّرْتُ أَمْرَ شُكْرِهِ بِوَقارٍ مُماثِلٍ.

أَخيرًا جاءَ القُبْطانُ يَعْرِضُ التَّفاوُضَ. كانَ وَجْهُهُ شاحِبًا مُتْعَبًا، وكانَ يَرْفَعُ إحْدى ذِراعَيْهِ بِحَمّالَةٍ مُعَلَّقَةٍ بِعُنُقِهِ. ووافَقَ بَعْدَ حَديثٍ قَصيرٍ أَنْ يُنْزِلَنا ، أنا وأَلَن ، إلى الشّاطِئِ دونَ مُضايَقاتٍ أُخْرى.

وبَيْنَما كُنّا ، أَنا وأَلَن ، نَنْتَظِرُ وُصولَ السَّفينَةِ إلى الشّاطِئِ ، رُحْنا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَنْفُسِنا . إسْتَمَعَ إلى حِكايَتي بِتَعاطُفٍ إلى أَنْ ذَكَرْتُ اسْمَ صَديقِ السَّيِّدِ كامْبِل. عِنْدَ ذاكَ رَأَيْتُهُ يَنْتَفِضُ بِعُنْفٍ، ثُمَّ أَخْبَرَني أَنَّ بَيْنَ آلِ سِتيوارْت وآلِ كامْبِل عَداوَةً مَريرَةً ونِزاعاتٍ دَمَوِيَّةً مُتَواصِلَةً.

وكانَتْ حِكايَةُ أَلَنْ أَشَدَّ إثارَةً حَتّى مِنْ حِكايَتي نَفْسِها. فَقَدْ بَدَأَ حَياتَهُ ضابِطًا في الجَيْشِ الإنْكليزِيِّ. ثُمَّ فَرَّ مِنْهُ لِيَلْتَحِقَ بالاسْكُتْلَنْدِيّينَ المُطالِبينَ باسْتِعادَةِ عَرْشِ آلِ سْتيوارْت. وكانَ أَنْ تَمَكَّنَ الجَيْشُ الإنْكليزِيُّ النِّظامِيُّ المُدَرَّبُ، التّابِعُ لِلمَلِكِ جورج الأَوَّلِ، في مَعْرَكَةِ كالودِنِ الشَّهيرَةِ، مِنْ سَحْقِ الجَيْشِ الاسْكُتْلَنْدِيِّ غَيْرِ المُتَماسِكِ. وسَأَلْتُ أَلَن عَنِ السَّبَبِ الَّذي حَمَلَهُ عَلى البَقاءِ في اسْكُتْلَنْدا بَعْدَ تِلْكَ المَعْرَكَةِ، وقَدْ باتَ خارِجًا عَلى القانونِ.

قالَ مُوَضِّحًا : «أَقومُ بِرِحْلاتٍ مُنْتَظَمَةٍ بَيْنَ اسْكُتْلَنْدا وفَرَنْسا في خِدْمَةِ قائِدي أَرْدْشيل. فالمُزارِعونَ يَدْفَعونَ ضَريبَةً لِلمَلِكِ جورج ، ويَدْفَعونَ لِآلِ سْتيوارْت ، إخْلاصًا مِنْهُمْ لَهُمْ ، ضَريبَةً مُماثِلَةً. ومُهِمَّتي أَنْ أَجْمَعَ هٰذِهِ الضَّريبَةَ وأَحْمِلَها إلى فَرَنْسا حَيْثُ يُقيمُ أَرْدْشيل.

سَأَلْتُ : «وهَلْ يَدْفَعُ المُزارِعونَ هٰذِهِ الضَّريبَةَ الثّانِيَةَ عَنْ طيبَةِ خاطِرٍ؟»

أَجابَ : «نَعَمْ. يَدْفَعونَها عَنْ طيبَةِ خاطِرٍ. ويُنَظِّمُ هٰذِهِ العَمَلِيَّةَ جيمْس شَقيقُ أَرْدْشيل.»

أَخْبَرْتُهُ عِنْدَئِذٍ أَنّي ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنّي مِنْ أَنْصارِ المَلِكِ جورج ، مُقَدِّرٌ لِهٰؤُلاءِ القَوْمِ إخْلاصَهُمُ النَّبيلَ.



اِرْتَسَمَتِ ابْتِسامَةٌ عَلى وَجْهِهِ وقالَ: «أَنْتَ شابٌّ نَبيلٌ.» ثُمَّ تَحَوَّلَتِ الابْتِسامَةُ إِلى عُبوسٍ قاتِمٍ، وأَضافَ يَقولُ: «ولَيْسَ كَذٰلِكَ آلُ كامْبِل! - لَيْسَ كَذٰلِكَ الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ!»

تَغَلَّبَ فُضولي عَلى رَغْبَتي في تَهْدِئَةِ غَضَبِ مُحَدِّثي، فَقُلْتُ:

«مَنْ هُوَ الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ؟»

فَأَجابَ بِصَوْتٍ يَخْنُقُهُ الحِقْدُ قائِلًا: «مَنْ هُوَ؟ عِنْدَما قَهَرَ الجَيْشُ الاسْكُتْلَنْدِيُّ في مَعْرَكَةِ كالودِن أُجْبِرَ أَرْدْشيل عَلى الفِرارِ إِلى فَرَنْسا. صادَروا أَراضِيَهُ وجَرَّدوا أَهْلَهُ مِنَ السِّلاحِ، بَلْ مَنَعوهُمْ مِنْ لُبْسِ شِعارِ النَّبالَةِ. لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقْوَوْا عَلى نَزْعِ الإِخْلاصِ مِنْ قُلوبِ أَبْناءِ الشَّعْبِ. وهٰذِهِ الضَّريبَةُ تُثْبِتُ ذٰلِكَ.

«ثُمَّ سَعى كولِن كامْبِل إِلى التَّقَرُّبِ مِنْ جيمْس شَقيقِ أَرْدْشيل. وتَمَكَّنَ بِهٰذِهِ الوَسيلَةِ مِنْ اكْتِشافِ الطَّريقَةِ الَّتي تَتَسَرَّبُ بِها الضَّريبَةُ الثّانِيَةُ إِلى خارِجِ البِلادِ، وأَسَرَّ بِالأَمْرِ إِلى سَيِّدِهِ، المَلِكِ جورج. فَطُرِدَ أَنْصارُ أَرْدْشيل مِن مَزارِعِهِمْ وتُرِكوا يَتَضَوَّرونَ جوعًا، واسْتُبْدِلَ بِهِمْ مُزارِعونَ آخَرونَ مِنْ رِجالِ كامْبِل.

«وقَدْ لُقِّبَ كولِن كامْبِل، لِحيلَتِهِ الخَسيسَةِ تِلْكَ وشَعْرِهِ الأَحْمَرِ، بِالثَّعْلَبِ الأَحْمَرِ. لٰكِنَّهُ سَيَدْفَعُ قَريبًا ثَمَنَ شُرورِهِ، فَقَدْ أَقْسَمْتُ أَنْ أُلاحِقَهُ وأَقْتُلَهُ!»

ما إِنْ أَنْهى آلَن كَلامَهُ حَتّى رَأَيْنا القُبْطانَ يُقْبِلُ نَحْوَنا بادِيَ القَلَقِ ويَسْأَلُنا أَنْ نُرافِقَهُ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ.

وبَدا لَنا أَنَّ في دَعْوَتِهِ تِلْكَ فَخًّا، لٰكِنَّ لَهْفَتَهُ أَقْنَعَتْنا بِمُرافَقَتِهِ.

كانَ الظَّلامُ آنَذاكَ مُخَيِّمًا والجَوُّ عاصِفًا. وكانَتِ الرِّياحُ تَدْفَعُ السَّفينَةَ صَوْبَ السّاحِلِ الصَّخْرِيِّ. وقَدْ رَغِبَ القُبْطانُ في الاِسْتِعانَةِ بِآلَن، عَلَّهُ، وهُوَ ابْنُ تِلْكَ البِلادِ، يَقْدِرُ على تَوْجيهِ السَّفينَةِ بِأَمانٍ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ الصَّخْرِيَّةِ الخَطِرَةِ.

أَقَرَّ آلَن أَنَّهُ لَيْسَ بَحّارًا، لٰكِنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ. وقَدْ تَمَكَّنَ بِالفِعْلِ، بِمُساعَدَةِ بَعْضِ البَحّارَةِ، مِنْ تَجْنيبِ السَّفينَةِ مَوْقِعَيْنِ صَخْرِيَّيْنِ كَبيرَيْنِ.

ثُمَّ انْقَلَبَتِ الرّيحُ فَجْأَةً فارْتَدَّتِ السَّفينَةُ واصْطَدَمَتْ بِبَعْضِ الصُّخورِ المُجاوِرَةِ، مُحْدِثَةً ضَجيجًا هائِلًا، وتَناثَرَ بَعْضُ خَشَبِها في مَوْضِعِ الاِصْطِدامِ شَظايا. ووَقَعْنا كُلُّنا أَرْضًا.

وسُرْعانَ ما تَمالَكْتُ نَفْسي فَوَقَفْتُ ورَكَضْتُ صَوْبَ جانِبِ السَّفينَةِ. فَرَأَيْتُ، على ضَوْءِ القَمَرِ، أَنَّنا قَريبونَ جِدًّا مِنَ الشّاطِئِ، لٰكِنَّ الرّيحَ كانَتْ تُمَزِّقُ السَّفينَةَ تَمْزيقًا. وسَمِعْنا البَحّارَةَ الجَرْحى في العَنْبَرِ الأَمامِيِّ يَصيحونَ مُسْتَغيثينَ.

جَرَّ رايَنْش وأَحَدُ البَحّارَةِ قارِبَ النَّجاةِ إلى جانِبِ السَّفينَةِ. ثُمَّ سَمِعْنا فَجْأَةً صَوْتًا يَصيحُ قائِلًا: «اِحْمِنا يا رَبُّ!»



في تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْقَضَّتْ عَلَيْنا مَوْجَةٌ هائِلَةٌ قَلَبَتِ السَّفينَةَ. ورَأَيْتُ نَفْسي أُقْذَفُ في البَحْرِ.

كِدْتُ أَغْرَقُ، وابْتَلَعْتُ ماءً كَثيرًا. لٰكِنّي تَمَكَّنْتُ أَخيرًا مِنْ رَفْعِ رَأْسي فَوْقَ الماءِ. لَمْ أَكُنْ سَبّاحًا ماهِرًا، وَوَجَدْتُ نَفْسي مُنْشَغِلًا بِتَأْمينِ قُدْرَتي على التَّنَفُّسِ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمامي بِالوُجْهَةِ الَّتي أَتَحَرَّكُ فيها.

عَلى أَيِّ حالٍ، فَقَدْ رَمى القَدَرُ بَيْنَ يَدَيَّ جُزْءًا مِنْ سارِيَةِ السَّفينَةِ تَعَلَّقْتُ بِهِ، وحَمَلَني إلى المِياهِ الهادِئَةِ، حَيْثُ شَكَرْتُ رَبّي عَلى بَقائي حَيًّا.

بَعْدَ ساعَةٍ مِنَ التَّجْديفِ وَصَلْتُ خَليجًا رَمْلِيًّا مُحاطًا بِتِلالٍ مُنْخَفِضَةٍ. تَرَكْتُ هُنا الخَشَبَةَ وخُضْتُ الماءَ إلى الشّاطِئِ ووَقَعْتُ عَلى رِمالِهِ مُنْهَكًا بائِسًا، ونِمْتُ نَوْمًا أَشْبَهَ بِالإِغْماءِ.

عِنْدَما أَفَقْتُ الْتَفَتُّ حَوْلي أَبْحَثُ عَنْ ناجينَ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا. فَمَشَيْتُ وَحيدًا بائِسًا صَوْبَ الشَّرْقِ عَلّي أَجِدُ أَحَدًا مِنَ النّاسِ. وسُرْعانَ ما اعْتَرَضَني نَهْرٌ يَبْلُغُ عَرْضُهُ نِصْفَ ميلٍ.



تَحَوَّلْتُ عَنِ اتِّجاهي وتَبِعْتُ مَجْرى النَّهْرِ أَبْحَثُ عَن طَريقَةٍ أَعْبُرُهُ بِها.

وبَعْدَ ساعَتَيْنِ مِنَ المَشْيِ وجَدْتُ نَفْسي في المَكانِ عَيْنِهِ الَّذي خَوَّضْتُ الشّاطِئَ فيهِ. لَقَدْ كُنْتُ في جَزيرَةٍ!

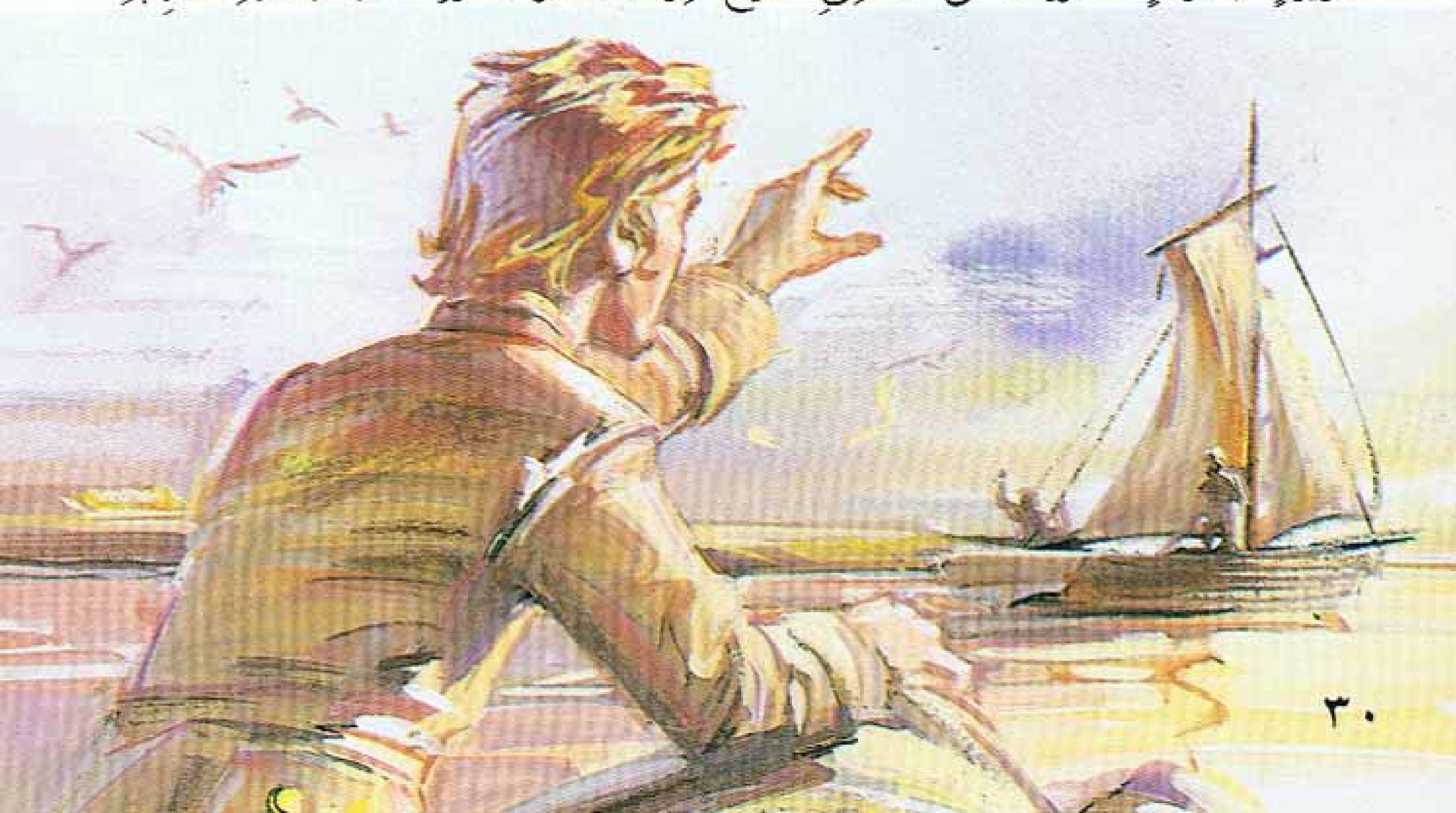
أَصابَني، عِنْدَما وَعَيْتُ هٰذِهِ الحَقيقَةَ، هَلَعٌ وإِحْساسٌ مَريرٌ بِالوَحْدَةِ. وزادَ في بُؤْسي أَنّي رَأَيْتُ دُخانًا يَتَصاعَدُ مِنْ مِدْخَنَةِ بَيْتٍ قائِمٍ عَلى البَرِّ القَريبِ مُقابِلَ الجَزيرَةِ الَّتي عَلِقْتُ فيها.

كُنْتُ أَتَضَوَّرُ جوعًا فَتَناوَلْتُ مَحارًا نَيِّئًا، فَشَعَرْتُ بِمَعِدَتي تَنْقَلِبُ وتَقَيَّأْتُ مِرارًا.

بَكَيْتُ قَهْرًا وقَدْ رَأَيْتُ نِصْفَ ميلٍ مِنَ البَحْرِ يَسُدُّ أَمامي طَريقَ الحَياةِ. وأَخيرًا، تَمَدَّدْتُ عَلى الأَرْضِ وحاوَلْتُ أَنْ أَنامَ.

لَمْ أَعْرِفْ طَوالَ رِحْلَتي كُلِّها تَجْرِبَةً أَشَدَّ مَرارَةً عَلى النَّفْسِ مِنْ تِلْكَ الَّتي عَرَفْتُها في صَباحِ اليَوْمِ التّالي. فَقَدْ رَأَيْتُ قارِبَ صَيْدٍ صَغيرًا قَريبًا مِنْ شاطِئِ الجَزيرَةِ، وأَخَذْتُ أَصيحُ طالِبًا العَوْنَ. وعِنْدَما سَمِعَ البَحّارَةُ صِياحي الْتَفَتوا إِلَيَّ وضَحِكوا وخاطَبوني بِلُغَةِ سُكّانِ المُرْتَفَعاتِ المَحَلِّيَّةِ، فَلَم أَفْهَمْ شَيْئًا.

لٰكِنَّ القارِبَ لَمْ يَتَوَقَّفْ. ولَمْ أُصَدِّقْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ القَساوَةِ بِحَيْثُ يَتْرُكُ إِنْسانًا في جَزيرَةٍ مَهْجورَةٍ. فَجَرَيْتُ عَلى الشّاطِئِ أَصيحُ صِياحًا مَجْنونًا. غَيْرَ أَنَّ رَدَّ بَحّارَةِ القارِبِ



عَلى صِياحي كانَ إغْراقًا في الضَّحِكِ، فجَلَسْتُ عَلى الأَرْضِ أَبْكي كَما يَبْكي طِفْلٌ غاضِبٌ.

عِشْتُ أيّامًا أَرْبَعَةً عَلى المَحارِ النَّيْءِ الكَريهِ وثِمارِ العُلَّيْقِ البَرِّيِّ. ثُمَّ مَرَّ قارِبُ صَيْدٍ آخَرُ. وعِنْدَما نادَيْتُ اسْتَدارَ صَوْبي وسَمِعْتُ أَحَدَ البَحّارَةِ يَصيحُ مُخاطِبًا إيّايَ بِلُغَةِ سُكّانِ المُرْتَفَعاتِ. وعَلى الرُّغْمِ أَنّي لَمْ أَكُنْ أَتَكَلَّمُ تِلْكَ اللُّغَةَ فَقَدْ تَلَقَّفْتُ كَلِمَةَ «مَدّ».

وفَجْأَةً انْكَشَفَ أَمامي السَّبَبُ الّذي حَمَلَ بَحّارَةَ قارِبِ الصَّيْدِ الأَوَّلِ عَلى الضَّحِكِ. فإنَّهُ حينَ يَنْحَسِرُ المَدُّ تَنْخَفِضُ مِياهُ المَمَرِّ المائِيِّ الّذي ظَنَنْتُهُ نَهْرًا، وتُصْبِحُ ضَحْلَةً يَسْهُلُ عُبورُها إلى البَرِّ الرَّئيسِيِّ.

وبَيْنَما رُحْتُ أَخوضُ المِياهَ الضَّحْلَةَ تَناوَبَتْني مَشاعِرُ الارْتِياحِ لِخَلاصي والثَّوْرَةِ عَلى نَفْسي لِغَبائي.

وهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي عَلى شاطِئِ راسْمُل الأَجْرَدِ، أَتَوَجَّهُ صَوْبَ المَنْزِلِ الّذي رَأَيْتُ الدُّخانَ يَتَصاعَدُ مِنْهُ وأَنا فَوْقَ الجَزيرَةِ. وَصَلْتُ في نَحْوِ السّادِسَةِ مِنْ ذٰلِكَ المَساءِ كوخًا مُنْخَفِضًا خَشِنَ المَظْهَرِ.

ورَأَيْتُ عَجوزًا يَجْلِسُ خارِجَ الكوخِ يُدَخِّنُ غَلْيونًا. اِسْتَفْسَرْتُ مِنَ العَجوزِ عَنْ مَصيرِ بَحّارَةِ السَّفينَةِ المُحَطَّمَةِ، فأَعْلَمَني أَنَّ عَدَدًا مِنْهُم قَدْ وَصَلَ الشّاطِئَ سالِمًا وأَقامَ في كوخِهِ بَعْضَ الوَقْتِ.

سَأَلْتُ: «أَكانَ بَيْنَ النّاجينَ رَجُلٌ ذو ثِيابٍ مُمَيَّزَةٍ؟»

أَجابَ أَنَّهُ كانَ بَيْنَهُمْ رَجُلٌ لا يَلْبَسُ ثِيابَ بَحّارٍ. ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَهْتِفُ فَجْأَةً: «لا بُدَّ أَنَّكَ الفَتى الّذي يَحْمِلُ الزِّرَّ الفِضِّيَّ.»

أَجَبْتُ وأَنا أُريهِ الزِّرَّ: «أَنا هُوَ.»

قالَ: «إنَّ لَكَ عِنْدي رِسالَةً. عَلَيْكَ أَنْ تَلْحَقَ صَديقَكَ إلى مِنْطَقَتِهِ عَبْرَ توروسي.»

ثُمَّ أَدْخَلَني كوخَهُ وعَرَّفَني إلى زَوْجَتِهِ. واسْتَمَعَ الزَّوْجانِ إلى مُغامَراتي ثُمَّ سَمَحا لي أَنْ أُقيمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ في كوخِهِما، وقَدَّما لي طَعامًا.

بَدَأْتُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي رِحْلَتي. كانَتِ المَسيرَةُ إلى توروسي طَويلَةً. وكانَ الرّيفُ فَقيرًا يُعَشِّشُ في طُرُقاتِهِ المُتَسَوِّلونَ والشُّطّارُ واللُّصوصُ. وقَدْ حاوَلَ الدَّليلُ الّذي اسْتَأْجَرْتُهُ لِيَدُلَّني عَلى الطَّريقِ أن يَسْلُبَني مالي. لِذا فإنّي شَعَرْتُ، عِنْدَما وَصَلْتُ إلى توروسي، بارْتِياحٍ عَظيمٍ.

وتَلَقَّيْتُ تَعْليماتي هُناكَ مِنْ رُبّانِ المُعَدِّيَةِ الّتي تَصِلُ بَيْنَ توروسي وكِنْلوتْشالِن.

لَمْ أُحْسِنِ التَّصَرُّفَ أَوَّلَ الأَمْرِ مَعَ رُبّانِ المُعَدِّيَةِ، إذ عَرَضْتُ عَلَيْهِ مالًا لِقاءَ مَعْلوماتٍ تُوصِلُني إلى آلَن. ثُمَّ كانَ حَظّي مَعَهُ، حينَ أَرَيْتُهُ الزِّرَّ الفِضِّيَّ، خَيْرًا مِمّا سَبَقَ، فدَلَّني عَلى الطَّريقِ الّتي أَسْلُكُها.

شَكَرْتُهُ فقالَ لي: «لِأَنَّكَ الفَتى الّذي يَحْمِلُ الزِّرَّ الفِضِّيَّ عَلَيَّ أَنْ أُساعِدَكَ. لٰكِنْ حاذِرْ بَعْدَ اليَوْمِ أَنْ تَرْفَعَ صَوْتَكَ بِالسُّؤالِ عَنْ آلَن بْرِك، أَوْ أَنْ تَعْرِضَ نُقودَكَ القَذِرَةَ عَلى سَيِّدٍ اسْكُتْلَنْدِيٍّ.»

شَعَرْتُ بِالخَجَلِ مِنْ نَفْسي واعْتَذَرْتُ.



قَضَيْتُ لَيْلَةً في نُزُلٍ في كِنلوتْشالِن. وبَدَأْتُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي رِحْلَتي إلى آپن، مِنْطَقَةِ ألَن. وكانَتِ الرِّحْلَةُ تَسْتَغْرِقُ يَوْمَيْنِ وَسْطَ أراضٍ وَعْرَةٍ وخَطِرَةٍ.

وقَدْ سَرَّني، لِذٰلِكَ، أنّي تعرَّفْتُ، في الجُزْءِ التّالي مِنْ أسْفاري، إلى مُبَشِّرٍ جَوّالٍ يُدْعى السَّيِّدَ هَنْدِرْلانْد. وقَدْ وافَقَتْ طِباعُ ذٰلِكَ المُبَشِّرِ مُيولي، وقَبِلْتُ دَعْوَتَهُ لِلإقامَةِ عِنْدَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

لَمْ أكُنْ راغِبًا، عَلى أيِّ حالٍ، في التَّعَرُّفِ إلى جون كْليمور، الَّذي وَجَّهَني ألَن إلى أنْ أُقيمَ لَيْلَتي عِنْدَهُ. فإنَّ تَجْرِبَتي مَعَ سُكّانِ المُرْتَفَعاتِ الجُفاةِ جَعَلَتْني أُبْدي مِنْهُمْ جانِبَ الحَذَرِ.

وَفَّرَ عَلَيَّ السَّيِّدُ هَنْدِرْلانْد، في اليَوْمِ التّالي، مَسيرَةَ نَهارٍ كامِلٍ، إذْ نَقَلَني في زَوْرَقٍ عَبْرَ أحَدِ الخُلْجانِ إلى مِنْطَقَةِ آپن.

لاحَظْتُ، ونَحْنُ نَعْبُرُ الخَليجَ، وَمَضاتٍ حَمْراءَ تَنْبَعِثُ مِنَ الأراضي المُحاذِيَةِ لِلشّاطِئِ. سَألْتُ عَنْ تِلْكَ الوَمَضاتِ فقيلَ لي إنَّها، في الغالِبِ، صادِرَةٌ عَنْ جُنودِ المَلِكِ جورج الَّذينَ جاؤوا يَطْرُدونَ أنْصارَ آلِ سْتيوارْت في تِلْكَ المِنْطَقَةِ مِنْ مَزارِعِهِمْ.

أنْزَلَني القارِبُ في مَكانٍ مِنَ الشّاطِئِ قَريبٍ مِنْ تَلَّةٍ حُرْجِيَّةٍ. وهُناكَ جَلَسْتُ أسْتَريحُ وأتَناوَلُ شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ وأُفَكِّرُ في أمْري.



وقَدْ قطَعَ عَلَيَّ تفكيري أَصْواتُ خيَّالَةٍ تَرَدَّدَ صَداها مِنْ حَوْلي. ثُمَّ رَأَيْتُ مَوْكِبَ الخَيَّالَةِ يَقْتَرِبُ مِنِّي ؛ كانَ الأَوَّلُ رَجُلًا ضَخْمًا أَحْمَرَ الشَّعْرِ ، وكانَ الثاني ، كَما يُوحي مَظْهَرُهُ ، مُحامِيًا ، والثّالِثُ خادِمًا ، والرّابِعُ ضابِطًا.

اِعْتَرَضْتُ المَوْكِبَ وحَيَّيْتُ قائِدَهُ ، وسَأَلْتُ عَنِ الطَّريقِ إلى أوتْشارْن.

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَيَّ نِظْرَةً ثاقِبَةً وقالَ : «مَنْ تَقْصِدُ هُناكَ ؟»

أَجَبْتُ : «أَقْصِدُ جيمْس غْلِن.»

رَأَيْتُ التَّجَهُّمَ على وَجْهِ الرَّجُلِ فأَسْرَعْتُ أُضيفُ قائِلًا : «أنا مِنْ رَعايا المَلِكِ جورج المُخْلِصينَ.»

أَجابَ ، دونَ أَنْ يَبْدُوَ مُطْمَئِنًّا إلى كَلامي : «عَظيمٌ ، ولٰكِنْ لِمَ تَقْصِدُ أَخا أَرْدْشيل غَيْرَ الشَّقيقِ ؟ ولْتَعْلَمْ أَنّي صاحِبُ نُفوذٍ هُنا. إنَّ قُوّاتِ المَلِكِ تَحْتَ إِمْرَتي.»

أَدْرَكْتُ عِنْدَئِذٍ أَنّي أُواجِهُ كولِن كامْبل ، الثَّعْلَبَ الأَحْمَرَ – عَدُوَّ أَلَن الأَلَدَّ.

شَرَعْتُ في الجوابِ ، لٰكِنْ ما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى انْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنْ أَعْلى التَّلَّةِ ، وهَوى كامْبل مِنْ على حِصانِهِ وهُوَ يَئِنُّ قائِلًا : «أُصِبْتُ.»

قَفَزَ المُحامي عَنْ حِصانِهِ ، ورَفَعَ الرَّجُلَ بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، فوَجَدَهُ دونَ حَراكٍ. ماتَ الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ !

شَلَّني المَشْهَدُ المُرَوِّعُ ، ووَقَفْتُ جامِدًا كَالحَطَبَةِ. ثُمَّ لَمَحْتُ بِطَرَفِ عَيْني شَخْصًا مُتَّشِحًا بِالسَّوادِ يَجْري فَوْقَ التَّلَّةِ هارِبًا. اِلْتَفَتُّ وصِحْتُ : «ذاكَ هُوَ القاتِلُ !»

جَرَيْتُ صَوْبَ القاتِلِ أُطارِدُهُ ، فسَمِعْتُ المُحامي يَصيحُ : «عَشَرَةُ جُنَيْهاتٍ لِمَنْ يُمْسِكُ ذاكَ الفَتى. إِنَّهُ شَريكٌ في الجُرْمِ أُرْسِلَ إلى هُنا لِاعْتِراضِنا وإِيقافِنا.»

سَمِعْتُ ذٰلِكَ فدَبَّ فِيَّ الهَلَعُ. كُنْتُ المُطارِدَ فصِرْتُ الطَّريدَ ! اِلْتَفَتُّ وَرائي فرَأَيْتُ ذَوي المَعاطِفِ الحَمْراءِ مِنْ عَسْكَرِ السُّلْطَةِ في أَعْقابي.





وَفي اللَّحْظَةِ الّتي بَدا لي فيها أَنَّ مُغامَراتي قَدْ وَصَلَتْ إلى خاتِمَةٍ مُحْزِنَةٍ ، سَمِعْتُ مِنْ عَلى يَميني صَوْتًا خَفيضًا آمِرًا يَقولُ :

«تَعالَ هُنا بَيْنَ الأَشْجارِ .»

كانَ الجُنودُ يُوشِكونَ أَنْ يُطْبِقوا عَلَيَّ ، فَأَطَعْتُ الصَّوْتَ الآمِرَ دونَ تَرَدُّدٍ . وكانَتْ طَلَقاتُ المُطارِدينَ قَدْ أَخَذَتْ تَتَطايَرُ حَوْلي وَيَتَرَدَّدُ صَداها في أَرْجاءِ الغابَةِ .

كانَ ذاكَ أَلَن !

قالَ لي : «تَعالَ ، اتْبَعْني !» ثُمَّ انْدَفَعَ في سُرْعَةٍ خاطِفَةٍ . رَكَضْتُ مُجارِيًا سُرْعَتَهُ أَمْيالًا ، فَقَدْ أَوْرَثَني الخَوْفُ أَقْدامًا مُجَنَّحَةً . أَخيرًا ارْتَمى أَلَن عَلى الأَرْضِ ، وَسَقَطْتُ إلى جانِبِهِ وَقَدْ كادَتْ أَنْفاسي تَتَقَطَّعُ .

تمالكَ ألَن نَفْسَهُ، بَعْدَ تِلْكَ المُطارَدَةِ، قَبْلي. وَقَفَ والْتَفَتَ حَوْلَهُ هُنَيْهَةً، ثُمَّ عادَ وجَلَسَ إلى جانِبي.

قالَ: «كانَتْ مُطارَدَةً حامِيَةً، يا روبن.»

لَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ودَفَنْتُ وَجْهي بَيْنَ الأَعْشابِ. كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ نَبيلًا مِنْ نُبَلاءِ البِلادِ يَموتُ مَوْتًا فُجائِيًّا. لَمْ أَكُنْ قَدْ صَحَوْتُ مِنَ الصَّدْمَةِ بَعْدُ، وكانَتِ الحَسْرَةُ عَلى ذٰلِكَ الرَّجُلِ لا تَزالُ طاغِيَةً عَلى قَلْبي.

رَأَيْتُهُ يُقْتَلُ أَمامَ عَيْنَيَّ. وكانَ أَلَن قَدْ أَقْسَمَ أَنْ يَقْتُلَهُ، وقَدْ رَأَيْتُهُ في مَسْرَحِ الجَريمَةِ. وسَواءٌ عِنْدي أَكانَ قَتَلَهُ بِيَدِهِ أَمْ أَمَرَ أَحَدًا بِقَتْلِهِ، فالجَريمَةُ هِيَ هِيَ. صَديقِي الوَحيدُ في هٰذِهِ المُرْتَفَعاتِ الجافِيَةِ قاتِلٌ. ولَمْ أَقْوَ عَلى رَفْعِ رَأْسي ومُواجَهَتِهِ.

سَأَلَني أَلَن: «أَلا تَزالُ مُتْعَبًا؟»

أَجَبْتُ، ووَجْهي لا يَزالُ مُغَطًّى: «لا، لَسْتُ مُتْعَبًا. لٰكِنْ، عَلَيْنا، نَحْنُ الاِثْنَيْنِ، أَنْ نَفْتَرِقَ. أَحْبَبْتُكَ يا أَلَن كَثيرًا، لٰكِنْ طَريقُكَ غَيْرُ طَريقي.»

سَأَلَني، وقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ نِظْرَةٌ جادَّةٌ: «وَما الدّاعي؟»

أَجَبْتُ بانْفِعالٍ: «أَلا تَعْلَمُ؟ إنَّ في الطَّريقِ رَجُلًا مَقْتولًا أَقْسَمْتَ أَنْتَ عَلى قَتْلِهِ.»

رَدَّ عَلَيَّ أَلَن بِنَبْرَةٍ غاضِبَةٍ قائِلًا: «أَتَظُنُّ أَنّي، إذا أَرَدْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ، أَقومُ بِذٰلِكَ في مِنْطَقَتي، فَأَجْلُبَ عَلى شَعْبي المَتاعِبَ؟ وهَلْ آتي لِقَتْلِهِ ولَيْسَ مَعي إلّا قَصَبَةُ صَيْدٍ؟»

نَظَرْتُ إلَيْهِ فَرَأَيْتُ أَنَّ ما كانَ يُمْسِكُهُ بِيَدِهِ اليُسْرى لَمْ يَكُنْ فِعْلًا إلّا قَصَبَةَ صَيْدٍ.

قُلْتُ مُعْتَذِرًا: «إِنَّكَ فِعْلًا غَيْرُ مُسَلَّحٍ.»

أَضافَ أَلَن يَقولُ: «والآنَ أُقْسِمُ لَكَ بِشَرَفي أَنْ لا يَدَ لي في قَتْلِ هٰذا الرَّجُلِ.»

صِحْتُ، وقَدِ انْزاحَ عَنْ قَلْبي عِبْءٌ ثَقيلٌ: «حَمْدًا لله!»

مَدَدْتُ يَدي أُصافِحُهُ مُعْتَذِرًا عَنْ تُهْمَتي الظّالِمَةِ. وتَرَدَّدَ أَلَن في مُصافَحَتي، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى يَدي بِكِلْتا يَدَيْهِ، وقالَ إنَّه لا يَغْفِرُ مِثْلَ هٰذِهِ الإهانَةِ إلّا لي.

اِنْطَلَقْنا مَعًا إلى مَنْزِلِ جيمْس غْلِن. ووَجَدْنا أَنَّ نَبَأَ اغْتِيالِ الثَّعْلَبِ الأَحْمَرِ قَدْ بَعَثَ الهَلَعَ في أَهْلِ البَيْتِ كُلِّهِمْ.

رَحَّبَ بِنا جيمْس تَرْحيبًا عَطوفًا، لٰكِنَّهُ بَدا مُتْعَبًا شَديدَ القَلَقِ. وكانَ الخَدَمُ مِنْ حَوْلِهِ يُخْرِجونَ أَسْلِحَةً كانَتْ مُخَبَّأَةً في المَنْزِلِ ويَدْفِنونَها في أَماكِنَ بَعيدَةٍ عَنِ الشُّبُهاتِ.

تَحَدَّثَ جيمْس إلى أَلَن بِصَوْتٍ خَفيضٍ، وكانَ طَوالَ الوَقْتِ يُكْثِرُ مِنَ النَّظَرِ بِقَلَقٍ إلى حافَةِ التَّلَّةِ. كانَ يَتَوَقَّعُ وُصولَ ذَوي المَعاطِفِ الحَمْراءِ مِنْ جُنودِ المَلِكِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وأُخْرى.

جاءَنا خادِمٌ بِزادٍ وسِلاحٍ وذَخيرَةٍ وبَعْضِ المالِ. قالَ جيمْس:

«سأُرْسِلُ لَكَ، إذا قَدِرْتُ، مَبْلَغًا آخَرَ مِنَ المالِ. لٰكِنْ عَلَيْكَ الآنَ مُغادَرَةُ المَكانِ حالًا. سَيَتَّهِمونَكَ بِقَتْلِ كامْبِل، وسَيَقْلِبونَ الأَرْضَ بَحْثًا عَنْكَ. وإذا كُنْتَ أَنْتَ مُتَّهَمًا، فَستَتَّجِهُ نَحْوي شُكوكُهُمْ، إذ إنّي قَريبٌ لَكَ، ويَعْرِفونَ أَنَّكَ لَجَأْتَ إلَيَّ ونَزَلْتَ عِنْدي في مُناسَبَةٍ سابِقَةٍ.»

ثُمَّ نَظَرَ إلَيَّ وقالَ: «إنَّهم يَبْحَثونَ عَنْكَ. يَظُنّونَ أَنَّكَ شَريكٌ في القَتْلِ، وإذا أَمْسَكوكَ فَسيُعَذِّبونَكَ لِتَبوحَ بِاسْمِ القاتِلِ.»

كانَ وَجْهُهُ في أَثْناءِ الكَلامِ شاحِبًا، وكانَ يُكْثِرُ مِنْ قَضْمِ أَظافِرِهِ قَلَقًا.

نَظَرْنا، أَنا وأَلَن، واحِدُنا في وَجْهِ الآخَرِ. لَقَدْ وَجَدْنا نَفْسَيْنا مَطْلوبَيْنِ بِجَريمَةِ قَتْلٍ لَمْ نَرْتَكِبْها. كانَ مِنَ العَبَثِ مُحاوَلَةُ إثْباتِ بَراءَتِنا أَمامَ السُّلْطَةِ. لِذا وَدَّعْنا جيمْس وَداعًا سَريعًا وانْطَلَقْنا في بَهيمِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ غَيْرِ المُقْمِرَةِ مُطْمَئِنَّيْنِ إلى أَنَّ الظَّلامَ الدّامِسَ يَسْتُرُ تَحَرُّكاتِنا.

كانَتْ رِحْلَةً قاسِيَةً وسَريعَةً. كُنّا نَرْكُضُ حَتّى نَعْجِزَ عَنْ مُواصَلَةِ الرَّكْضِ، فَنَسْعى هَرْوَلَةً دَقائِقَ نَلْتَقِطُ فيها أَنْفاسَنا، لِنَعودَ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى مُواصَلَةِ الرَّكْضِ.

وَصَلْنا عِنْدَ الصَّباحِ إلى وادٍ تُغَطّيهِ الصُّخورُ الضَّخْمَةُ، ويَجْري فيهِ نَهْرٌ جَيّاشٌ.

قالَ لي أَلَن: «تَعالَ، عَلَيْنا أَنْ نَعْبُرَ النَّهْرَ. فلَيْسَ في هٰذا الجانِبِ ما يَسْتُرُنا. إنَّنا هُنا مَكْشوفانِ.»

رَكَضَ صَوْبَ النَّهرِ وقفزَ إلى صَخْرَةٍ في وَسَطِهِ. قَفَزْتُ مِثْلَهُ، وكِدْتُ أَزْلَقُ عَنِ الصَّخْرَةِ لَوْ لَمْ يُمْسِكْ بي.

وَقَفْنا مَعًا على تِلْكَ الصَّخْرَةِ الصَّغيرَةِ المُبَلَّلَةِ ومِنْ حَوْلِنا الماءُ الجارِفُ. وكانَ لا يَزالُ عَلَيْنا أَنْ نَقومَ بِقَفْزَةٍ أَوْسَعَ مِنْ سابِقَتِها.

نَظَرْتُ إلى حافَةِ النَّهرِ الأُخْرى فتأَكَّدَ لي أَنّي لَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الوُصولِ إلَيْها، فغَطَّيْتُ عَيْنَيَّ بِيَدَيَّ. هَزَّني أَلَن هَزًّا عَنيفًا وصَرَخَ بِكَلِماتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْها وَسْطَ هَديرِ المِياهِ كَلِمَةً واحِدَةً.

هَزَّني مَرَّةً أُخرى وقَرَّبَ شَفَتَيْهِ مِنْ أُذُنَيَّ وصاحَ: «تَعَلَّقْ أَوِ اغْرَقْ!» ثُمَّ قَفَزَ قَفْزَةً هائِلَةً أَوْصَلَتْهُ إلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهْرِ.

أَدْرَكْتُ أَنّي إذا لَمْ أَقْفِزِ الآنَ فلَنْ أَقْفِزَ أَبَدًا. تحَفَّزْتُ، ورَمَيْتُ بِجَسَدي كُلِّهِ في قَفْزَةٍ يائِسَةٍ، وتَمَكَّنْتُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالطَّرَفِ الآخَرِ. لكِنَّ جَسَدي كانَ في الماءِ. ولَمْ أَكُنْ لِأَقْدِرَ على مُقاوَمَةِ تَيّارِ الماءِ الجارِفِ طَويلًا، فَأَسْرَعَ أَلَن يُمْسِكُ بي مِنْ شَعْري ويَشُدُّني إلى بَرِّ الأَمانِ.





وَصَلْنا أَخيرًا إلى صَخْرَةٍ عالِيَةٍ شَديدَةِ الإِنْحِدارِ ذاتِ قِمَّةٍ مُقَعَّرَةٍ. تَسَلَّقَ أَلَن إلى قِمَّةِ الصَّخْرَةِ ودَلّى لي حِزامَهُ، وشَدَّني إلى فَوْقُ.

اِبْتَسَمَ لي وقالَ: «الآنَ أَمامَنا فُرْصَةٌ لِلرّاحَةِ.»

وكانَ جَوابي عَلى ذٰلِكَ أَنّي ارْتَمَيْتُ عَلى الأَرْضِ في الحالِ وغَرِقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ.

اِسْتَيْقَظْتُ عَلى أَلَن يَضَعُ يَدَهُ عَلى فَمي، ويَهْمِسُ: «صَهْ! إِنَّكَ تَشْخِرُ.»

أَجَبْتُ بِعَصَبِيَّةٍ: «وأَيُّ ضَيْرٍ في ذٰلِكَ؟»

أَوْمَأَ أَلَن لي لِأَنْظُرَ إلى أَسْفَلُ. نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ عِنْدَ قاعِدَةِ الصَّخْرَةِ مَجْموعَةً مِنْ ذَوي المَعاطِفِ الحَمْراءِ، ورَأَيْتُ حُرّاسًا يُراقِبونَ المِنْطَقَةَ كُلَّها.

لَمْ يَكُنْ أَمامَنا إلّا أَنْ نَقْبَعَ في مَكانِنا فَوْقَ الصَّخْرَةِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ. وَفي نَحْوِ السّاعَةِ الثّانِيَةِ كُنّا قَدْ شَعَرْنا وكَأَنّا شُوِينا أَحْياءً، ولَمْ نَعُدْ نُطيقُ الصَّبْرَ عَلى الحالِ.

رَأَيْنا في مَوْضِعٍ قَريبٍ مِنّا بُقْعَةً ظَليلَةً، فاتَّفَقْنا عَلى أَنْ نُخاطِرَ بِالنُّزولِ مِنْ فَوْقِ الصَّخْرَةِ. فَلِلْمَوْتِ طَعْمٌ واحِدٌ، بِضَرْبَةِ شَمْسٍ كانَ أَمْ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ.

تَمَكَّنّا مِنَ الوُصولِ إلى البُقْعَةِ الظَّليلَةِ سالِمَيْنِ. فَمَكَثْنا هُناكَ إلى أَنِ اسْتَعَدْنا قُوانا، ثُمَّ أَمَرَ أَلَن بِمُتابَعَةِ المَسيرَةِ.

رُحْنا نَتَسَلَّلُ مِنْ صَخْرَةٍ إلى صَخْرَةٍ، تارَةً نَنْحَني وتارَةً نَزْحَفُ. كانَ تَقَدُّمُنا بَطيئًا وشاقًّا، وما إِنْ غَرُبَتِ الشَّمْسُ حَتّى كُنّا مُنْهَكَيْنِ يَكادُ يَقْتُلُنا العَطَشُ.

أَخيرًا وَصَلْنا إلى جَدْوَلٍ جَبَلِيٍّ مُتَأَلِّقٍ عَميقٍ، فأَلْقَيْنا هُمومَنا جانِبًا وغَطَّسْنا رَأْسَيْنا في مِياهِهِ البارِدَةِ المُنْعِشَةِ.

عِنْدَما أَطْفَأْنا عَطَشَنا كانَ اللَّيْلُ قَدْ هَبَطَ، فاسْتَأْنَفْنا مَسيرَتَنا مُخَلِّفَيْنِ العَسْكَرَ وَراءَنا.

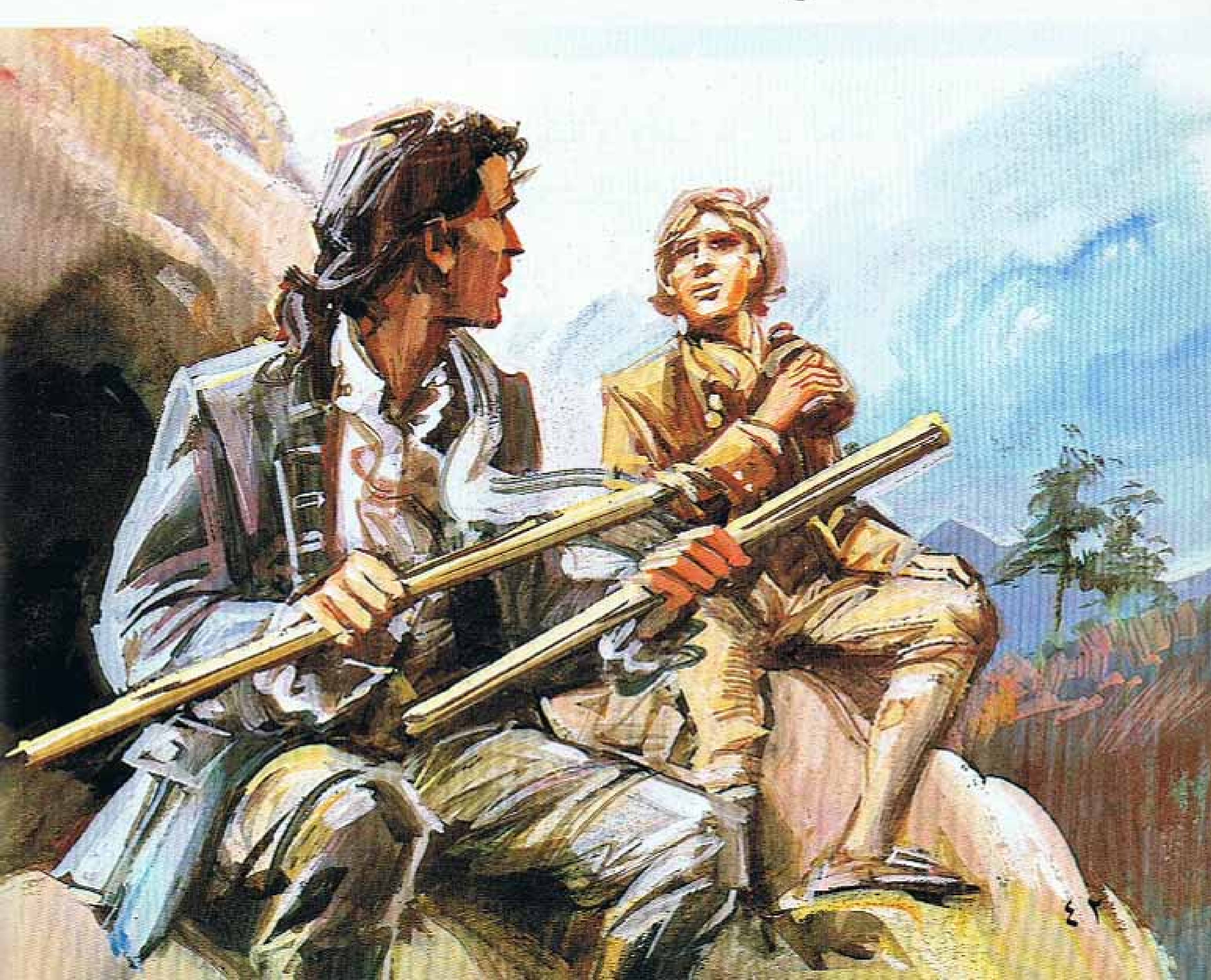
طَلَعَ القَمَرُ عَلَيْنا فأَضاءَ أَمامَنا جِبالًا ومَضيقًا بَحْرِيًّا. وهُناكَ عَرَفَ أَلَنْ طَريقَهُ فانْشَرَحَ صَدْرُهُ وراحَ يُصَفِّرُ صَفيرًا عالِيًا. وأَدْرَكْتُ أَنّنا بِتْنا، إلى حينٍ، في أَمانٍ.

وَصَلْنا عِنْدَ الفَجْرِ إلى المَكانِ الَّذي نَقْصِدُهُ. ولَمْ يَكُنْ إلّا شَقًّا بَعيدًا في رَأْسِ الجَبَلِ، بَدا لي، عَلى الرُّغْمِ مِنْ غَرابَتِهِ، جَميلًا ساحِرًا. قَضَيْنا هُناكَ خَمْسَةَ أَيّامٍ نَنامُ في كَهْفٍ ونَقْضي الوَقْتَ في صَيْدِ السَّمَكِ.

عَلَّمَني أَلَن المُبارَزَةَ بِالسَّيْفِ. وكانَ مُعَلِّمًا صارِمًا، يَصْعُبُ إرْضاؤُهُ، لٰكِنّي تَعَلَّمْتُ مِنْهُ الكَثيرَ.

قَضَيْنا كَذٰلِكَ وَقْتًا طَويلًا نُخَطِّطُ لِلمُسْتَقْبَلِ. قالَ أَلَن إنّه سَيُحاوِلُ الفِرارَ إلى فَرَنْسا. أَمّا أَنا فَقَدْ أَرَدْتُ العَوْدَةَ إلى قَصْرِ آلِ شوز ومُطالَبَةَ عَمّي بِميراثي الشَّرْعِيِّ.

رَأَيْنا أَخيرًا أَنْ نَذْهَبَ مَعًا إلى مِنْطَقَةِ المُنْخَفَضاتِ حَيْثُ قَدْ أَتَمَكَّنُ مِنْ مُساعَدَةِ أَلَن في خُطَطِ الهَرَبِ. لٰكِنْ كانَ عَلَيْنا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ نَتَّصِلَ بِجيمْس غْلِن لِنُعْلِمَهُ بِمَكانِ وُجودِنا، ونَسْأَلَهُ أَنْ يَجْمَعَ لَنا مالًا.



خطَرَتْ لِآلَن فِكْرَةٌ فَريدَةٌ. سَأَلَني أَوَّلًا إنْ كُنْتُ أُعيرُهُ الزِّرَّ الفِضِّيَّ الّذي أَعْطاني إيّاهُ، فإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ راغِبًا في قَطْعِ زِرٍّ آخَرَ مِنْ مِعْطَفِهِ.

ثُمَّ شَقَّ شَريطًا ضَيِّقًا مِنْ بِطانَةِ ثَوْبِهِ رَبَطَ بِهِ الزِّرَّ إلى عودَيْنِ مُتَصالِبَيْنِ. ولَفَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ في أَوْراقٍ مِنْ شَجَرِ الصَّنَوْبَرِ والبَتولا. وقالَ لي إنَّ تِلْكَ رِسالَةٌ سيَرْمي بِها عَبْرَ شُبّاكِ أَحَدِ البُيوتِ في قَرْيَةٍ مُجاوِرَةٍ لَهُ فيها أَصْدِقاءُ.

سَأَلْتُ: «لٰكِنْ، أَيَفْهَمُ مَنْ تَقَعُ هٰذِهِ الرِّسالَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعْناها؟»

أَقَرَّ آلَن أَنَّ النَّجاحَ غَيْرُ مَضْمونٍ، وقالَ: «عَلَيْنا أَنْ نُجَرِّبَ. لٰكِنَّ هٰذَيْنِ العودَيْنِ المُتَصالِبَيْنِ شَبيهانِ بِالعَلامَةِ المُتَعارَفِ عَلَيْها بَيْنَ أَنْصارِنا لِلتَّجَمُّعِ والقِتالِ. ولَمّا كانَتْ رِسالَتي خالِيَةً مِنْ أَيِّ شَرْحٍ فسيَفْهَمُ مَنْ تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّها لَيْسَتْ دَعْوَةً لِحَمْلِ السِّلاحِ، بَلْ لِشَيْءٍ آخَرَ. ومَنْ يَتَعَرَّفُ إلى زِرّي سيَعْرِفُ أَنّي في خَطَرٍ. وستَقودُهُ أَوْراقُ الصَّنَوْبَرِ والبَتولا إلى هٰذا المَكانِ، ذٰلِكَ أَنَّهُ المَكانُ الوَحيدُ في هٰذِهِ النّاحِيَةِ الّذي يَحْوي هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الشَّجَرِ.»

قُلْتُ وقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهي ابْتِسامَةٌ: «خُطَّةٌ فَريدَةٌ. لٰكِنْ عِنْدي خُطَّةٌ أَبْسَطُ مِنْها. لِمَ لا تُرْسِلُ رِسالَةً مَكْتوبَةً؟»

أَجابَ وهُوَ يَرُدُّ لي ابْتِسامَتي: «لِأَنَّ صَديقي الّذي أُرْسِلُ لَهُ الرِّسالَةَ، يا سَيِّدُ روبِن فور، لا يَعْرِفُ القِراءَةَ؟»

تَسَلَّلَ آلَن تِلْكَ اللَّيْلَةَ وسَلَّمَ رِسالَتَهُ. وفي اليَوْمِ التّالي دَخَلَ عَلَيْنا عِنْدَ الظَّهيرَةِ رَجُلٌ، جاءَ يَنْقُلُ الرِّسالَةَ إلى جيمْس غْلِن.

عادَ الرَّجُلُ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيّامٍ يَحْمِلُ أَنْباءً سَيِّئَةً. فجيمْس مَسْجونٌ والجُنودُ يُمَشِّطونَ الرّيفَ بَحْثًا عَنّا. كانَ ما مَعَنا، نَحْنُ الاِثْنَيْنِ، يَقِلُّ عَنْ سِتَّةِ جُنَيْهاتٍ، وكانَ لا بُدَّ أَنْ نَتَدَبَّرَ أَمْرَ سَفَرِ آلَن إلى فَرَنْسا.

اِسْتَأْنَفْنا رِحْلَتَنا بِقَلْبَيْنِ مُثْقَلَيْنِ. فالرِّحْلَةُ الآنَ تَبْدو طَويلَةً ، وتَبْدو آفاقُها قاتِمَةً.

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ كِدْتُ أَتَسَبَّبُ ، بِحَماقَتي ، بِضَياعِ الأَمَلِ الباهِتِ بِالنَّجاحِ الَّذي كُنّا لا نَزالُ نَتَمَسَّكُ بِهِ. فَقَدْ نِمْتُ في أَثْناءِ نَوْبَةِ حِراسَتي.

عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ رَأَيْتُ نَفَرًا مِنَ الجُنودِ يَقْتَرِبونَ مِنْ مَلْجَإِنا. أَيْقَظْتُ أَلَن بِسُرْعَةٍ فَرَأى في الحالِ ما نَحْنُ فيهِ مِنْ خَطَرٍ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يُوَجِّهْ لي كَلِمَةَ لَوْمٍ واحِدَةً.

لم يَكُنْ أَمامَنا من فُرْصَةٍ إِلّا بِالِالْتِفافِ حَوْلَ الجُنودِ ، فَقَدْ كانَ الِارْتِدادُ إلى الوَراءِ في الطَّريقِ الَّتي أَتَيْنا مِنْها غَيْرَ مُمْكِنٍ. فتَقَدَّمْنا بَيْنَ الحَشائِشِ والجَنَباتِ عَلى أَيْدينا وأَرْجُلِنا ، كَما تَمْشي الحَيَواناتُ ، مُبْقِيَيْنِ رَأْسَيْنا ، طَوالَ الوَقْتِ ، مَخْفوضَيْنِ قَريبًا مِنَ الأَرْضِ.

وكانَ هٰذا النَّوْعُ مِنَ التَّحَرُّكِ مُضْنِيًا ، فلَمْ يَمْضِ مِنَ الوَقْتِ نِصْفُ ساعَةٍ حتّى بِتُّ أَشْعُرُ أَنَّ في كُلِّ نَقْلَةٍ أَنْقُلُها نِهايَةً لِحَياتي. ولم يَجْعَلْني أَتَحَمَّلُ تِلْكَ الآلامَ إِلّا خَوْفي مِن غَضَبِ أَلَن.

أَخيرًا هَبَطَ اللَّيْلُ. اِلْتَفَتْنا وَراءَنا فرَأَيْنا أَنَّ الجُنودَ لَمْ يَكْتَشِفوا أَمْرَنا. وشاءَ أَلَن أَنْ

نَمْشِيَ طَوالَ اللَّيْلِ ، عَلى الرُّغْمِ مِنْ أَنّي تَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْمَحَ لي بِأَخْذِ قِسْطٍ مِنَ النَّوْمِ.

طَلَعَ الفَجْرُ عَلَيْنا ونَحْنُ لا نَزالُ نَمْشي. كانَ جَسَدانا مَحْنِيَّيْنِ كَأَجْسادِ الشُّيوخِ ، ووَجْهانا شاحِبَيْنِ. لَمْ أَكُنْ أَرى إِلّا خَيالاتٍ ، ولَمْ أَكُنْ أَسْمَعُ شَيْئًا. فقد تَرَكَّزَ انْتِباهي كُلُّهُ عَلى نَقْلِ قَدَمٍ إلى أَمامِ الأُخْرى. وكانَ أَلَن يَتَرَنَّحُ أَمامي كَالمَخْبولِ.

فَجْأَةً قَفَزَ مِنْ بَيْنِ الجَنَباتِ أَرْبَعَةُ رِجالٍ وهاجَموا بِالسَّكاكينِ ورَمَوْنا أَرْضًا. ولَمْ أَعْبَأْ ، وأَنا مُمَدَّدٌ عَلى الأَرْضِ ، بِما يُصيبُني ، فَقَدْ كانَ كُلُّ ما يَعْنيني في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنّي تَوَقَّفْتُ ، وحَمَدْتُ رَبّي عَلى ذٰلِكَ. سَمِعْتُ أَلَن يَهْمِسُ لِأَحَدِ الرِّجالِ بِاللُّغَةِ المَحَلِّيَّةِ ، ورَأَيْتُهُمْ يَرْفعونَ سَكاكينَهُمْ عَنْ عُنُقَيْنا.

قالَ أَلَن : «إِنَّهُمْ أَصْدِقاءُ ، يا روبِن. إِنَّهُمْ رِجالُ كْلاني ماكْفِرْسُن المُناهِضِ لِلسُّلْطَةِ.»

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْ ذٰلِكَ الاسْكُتْلَنْدِيِّ الشَّهيرِ ، لٰكِنْ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّه يَجْرُؤُ عَلى البَقاءِ في مِنْطَقَتِهِ. فَقَدْ كُنْتُ افْتَرَضْتُ أَنَّه لَجَأَ إِلى فَرَنْسا مَعَ مَنْ لَجَأَ مِنْ جَماعَتِهِ.



أَخَذَنا إلى مَخْبَإِهِ الّذي كانَ مُعَلَّقًا بَيْنَ جُذوعِ أَشْجارٍ كَثيفَةٍ وأَغْصانٍ مُتَشابِكَةٍ.

اِسْتَقْبَلَنا كْلاني اسْتِقْبالًا حَسَنًا وقَدَّمَ لَنا الطَّعامَ والشَّرابَ. وعَلى الرُّغْمِ مِنْ ثِيابِهِ العَتيقَةِ المُمَزَّقَةِ فَقَدْ كانَ في تَصَرُّفاتِهِ صِفاتُ الزُّعَماءِ.

بَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ، جاءَ كْلاني بِوَرَقِ لَعِبٍ واقْتَرَحَ أَنْ نَلْعَبَ. اِحْمَرَّ وَجْهي، فَقَدْ كُنْتُ وَعَدْتُ أَبي أَلّا أَلْعَبَ بِالوَرَقِ أَبَدًا.

اِعْتَذَرْتُ عَنِ المُشارَكَةِ في اللَّعِبِ، وتَنَحَّيْتُ جانِبًا. كانَ رَأْسي يُؤْلِمُني أَلَمًا شَديدًا، وكُنْتُ أَشْعُرُ بِحَرارَةٍ عالِيَةٍ وتَخْديرٍ في جَسَدي كُلِّهِ. نِمْتُ نَوْمًا مُضْطَرِبًا طَوالَ يَوْمَيْنِ، اِنْتابَتْني خِلالَهُما كَوابيسُ مُرْعِبَةٌ كُنْتُ أَسْتَيْقِظُ فيها عَلى نَفْسي وأَنا أَصْرُخُ.

وقَدْ أَيْقَظَني أَلَن في هٰذَيْنِ اليَوْمَيْنِ مَرَّةً واحِدَةً طَلَبَ مِنّي فيها قَرْضًا، فَأَعْطَيْتُهُ كُلَّ ما مَعي وعُدْتُ إلى نَوْمي المُضْطَرِبِ.

اِسْتَيْقَظْتُ في اليَوْمِ الثّالِثِ وقَدِ اسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قُوايَ. لٰكِنّي اكْتَشَفْتُ أَنَّ أَلَن خَسِرَ نُقودَنا، نَحْنُ الاِثْنَيْنِ. ووَجَدْنا أَنْفُسَنا في مَأْزِقٍ حَرِجٍ. أَرادَ كْلاني أَنْ يُعيدَ إِلَيْنا نُقودَنا، لٰكِنّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ إذا كانَ مِنَ اللّائِقِ أَنْ أَقْبَلَها مِنْهُ. أَقْنَعَني أَخيرًا أَنّه لَمْ يَكُنْ يَسْعى وَراءَ الرِّبْحِ، لٰكِنّي كُنْتُ أُحِسُّ بِإِحْراجٍ شَديدٍ، وكُنْتُ ناقِمًا عَلى أَلَن لِأَنَّهُ وَضَعَني في مِثْلِ هٰذا المَوْقِفِ.



اِسْتَأْنَفْنا رِحْلَتَنا في صَمْتٍ كَئيبٍ. كُنْتُ غاضِبًا ولٰكِنْ رافِعَ الرَّأْسِ، وكانَ أَلَن غاضِبًا وخَجِلًا مِنْ نَفْسِهِ.

كانَ أَلَن خَجِلًا لِأَنَّهُ خَسِرَ مالي، وغاضِبًا لِأَنّي غاضِبٌ مِنْهُ. وقَدْ زادَ في تَعاسَتي أَنّي كُنْتُ لا أَزالُ أُعاني مِنْ بَعْضِ الإِرْهاقِ وارْتِفاعِ الحَرارَةِ. اِعْتَذَرَ لي أَلَن مَرَّةً عَنْ فِعْلَتِهِ، لٰكِنّي لَمْ أَكُنْ أُريدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا.

تابَعْنا سَفَرَنا في تِلْكَ النّاحِيَةِ أَيّامًا ثَلاثَةً. أَخيرًا قَطَعَ أَلَن حَبْلَ الصَّمْتِ بِأَنْ راحَ يُصَفِّرُ بِانْشِراحٍ ويُغَنّي. لَقَدْ تَغَلَّبَ على خَجَلِهِ، والآنَ شَرَعَ يَسْخَرُ مِنّي. فذَكَرَ أَنّي مِنَ الرَّعاعِ أَتْباعِ المَلِكِ جورج الأَوَّلِ، وأَنّي أَخافُ القَفْزَ عَبْرَ أَنْهارٍ صَغيرَةٍ. أَخيرًا لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ سُخْرِيَتَهُ فَأَطْلَقْتُ العَنانَ لِمَشاعِري.



قُلْتُ: «أَنْتَ أَكْبَرُ مِنّي سِنًّا، يا سَيِّدُ سْتيوارْت، وحَقُّكَ أَنْ تكونَ قَدْ تَعَلَّمْتَ مُراعاةَ مَشاعِرِ الآخَرينَ كما يُراعي الآخَرونَ مَشاعِرَكَ.»

وكانَ رَدُّهُ عَلى ذَلِكَ أَنْ كَشَفَ عَنْ أَسْنانِهِ وراحَ يُصَفِّرُ لَحْنًا اسْكُتْلَنْدِيًّا. ثُمَّ قالَ بِافْتِخارٍ:

«أنا مِنْ آلِ سْتيوارْت.»

أَجَبْتُ: «نَعَمْ، أَعْرِفُ أَنَّكَ تَحْمِلُ اسْمَ تِلْكَ الأُسْرَةِ المالِكَةِ. وأَنْتَ لا تَفْتَأُ تُذَكِّرُني بِهٰذِهِ الحَقيقَةِ. لٰكِنّي لَمْ أُقابِلْ أَحَدًا مِنْ آلِ سْتيوارْت في اسْكُتْلَنْدا إلّا وكانَ جِلْفًا وقَذِرًا.»

وَقَفَ أَلَن مَبْهوتًا وكَأَنَّهُ لا يُصَدِّقُ ما يَسْمَعُ، وقالَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ، وقَدْ شَدَّ عَلى أَسْنانِهِ: «أَتُدْرِكُ أَنَّكَ تُهينُني؟»



كانَ غَضَبي يَتَعاظَمُ ، فقُلْتُ : «وفَوْقَ ذٰلِكَ ، فإِنَّ الرَّعاعَ الّذينَ تَتَحدَّثُ عَنْهم قَدْ واجَهوكُمْ في ساحَةِ القِتالِ وقَهَروكُمْ. أَلا تَظُنُّ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَراهُمْ لِذٰلِكَ خَيْرًا مِنْكُمْ.»

قالَ أَلَن ، وقَدِ احْتَقَنَ وَجْهُهُ غَضَبًا : «لَنْ أُسامِحَكَ عَلى هٰذا الكَلامِ.»

أَجَبْتُ ، وأَنا أَمْتَشِقُ سَيْفي : «ولا أَنا أُسامِحُ.»

وَقَفَ أَلَن جامِدًا أَمامي وقَدْ بَدا عَلى وَجْهِهِ الذُّهولُ ، ثُمَّ صاحَ :

«يا روبِن ، أَأَنْتَ مَجنونٌ؟ لا أَسْتَطيعُ مُبارَزَتَكَ. أَكونُ كَأَنّي أَرْتَكِبُ جَريمَةَ قَتْلٍ!»

أَجَبْتُ : «لَقَدْ أَهَنْتَني.»

جَرَّدَ أَلَن سَيْفَهُ بِبُطْءٍ ثُمَّ رَماهُ جانِبًا ، وهوَ يَصيحُ : «لا! لا! لا أَقْدِرُ!»

فَجْأَةً زايَلَني غَضَبي. وأَحْسَسْتُ بِخَواءٍ في قَلْبي وسائِرِ أَنْحاءِ جَسَدي. وشَعَرْتُ بِشَيْءٍ يَقِفُ في حَلْقي ويَكادُ يَخْنُقُني. ونَدِمْتُ عَلى ما صَدَرَ مِنّي مِنْ كَلِماتٍ قاسِيَةٍ. تَذَكَّرْتُ شَجاعَتَهُ وعَطْفَهُ عَلَيَّ في الأَوْقاتِ العَصيبَةِ. فَجْأَةً خَذَلَتْني قُوايَ ، ولَمْ أَعُدْ أَقْوى عَلى الوُقوفِ. وأَحْسَسْتُ بِالحُمّى تَشْتَعِلُ في جَسَدي.

قُلْتُ بِصَوْتٍ هادِئٍ : «يا أَلَن ، إِنْ لَمْ تُساعِدْني ، فسأَموتُ هُنا.»

بَدا الذُّعْرُ عَلى وَجْهِهِ ، وسَأَلَ : «أَتَقْدِرُ عَلى المَشْيِ؟»

أَجَبْتُ : «لا ، فساقايَ واهِنَتانِ ، وَفي جَنْبي أَلَمٌ مُرَوِّعٌ. إِذا مُتُّ سامِحْني ، يا أَلَن. فإِنّي أَحْبَبْتُكَ دائِمًا ، حَتّى في أَوْقاتِ غَضَبي.»

أَسْرَعَ أَلَن نَحْوي يُمْسِكُني لِئَلّا أَسْقُطَ. وصاحَ بِفَزَعٍ : «لا تَقُلْ مِثْلَ هٰذا الكَلامِ ، يا روبِن. أَنا غَبِيٌّ قَليلُ الإِدْراكِ. فَقَدْ نَسيتُ أَنَّكَ فَتًى ، ولَمْ أُلاحِظْ أَنَّ الإِرْهاقَ والقَلَقَ والحُمّى تَكادُ تَقْتُلُكَ. أَرْجوكَ سامِحْني.»

أَجَبْتُ : «فَلْنَنْسَ هٰذا الأَمْرَ. يا أَلَن لِمَ تَعْطِفُ عَلَيَّ هٰذا العَطْفَ كُلَّهُ؟»

أَجابَ مُبْتَسِمًا : «لا أَعْرِفُ ، فِعْلًا. أَحْبَبْتُكَ مِنْ قَبْلُ لِأَنَّكَ لا تُخاصِمُ. والآنَ أُحِبُّكَ أَكْثَرَ!»

دَخَلْنا بَيْتًا قَرِيبًا فاسْتُقْبِلَ أَلَن باحْتِرامٍ بالِغٍ. أَقَمْنا هُناكَ أَيّامًا إلى أَنِ اسْتَعَدْتُ جانِبًا مِنْ عافِيَتي. ثُمَّ انْطَلَقْنا، في أَواخِرِ شَهْرِ آب (أُغُسْطُس) نَحْوَ مَدينَةِ سْتيرلِنْغ. وبَعْدَ مَسيرَةِ ثَلاثَةِ أَيّامٍ وَصَلْنا إلى تِلْكَ المَدينَةِ التّاريخيَّةِ المَعْلُوَّةِ بِقَلْعَتِها المَشْهورَةِ.

قالَ لي أَلَن: «ها أَنْتَ الآنَ في دِيارِكَ ثانِيَةً. إذا تَمَكَّنّا مِنْ عُبورِ نَهْرِ فورْث – هٰذا النَّهْرِ العَريضِ – فَسَنَكونُ في أَمانٍ.»

ولَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ، لِذٰلِكَ، خَيْبَةَ الأَمَلِ المَريرَةَ الّتي حَلَّتْ بنا عِنْدَما رَأَيْنا جِسْرَ العُبورِ الوَحيدَ تَحْتَ حِراسَةٍ مُشَدَّدَةٍ! لَمْ يَكُنْ مَعَنا نُقودٌ، ولا كانَ يَفْصِلُ بَيْنَنا وبَيْنَ بَرِّ الأَمانِ سِوى نِصْفِ ميلٍ مِنَ الماءِ.

جَلَسْتُ أَئِنُّ قَهْرًا. فَبَعْدَ الأَهْوالِ الّتي اجْتَزْناها يُمْنَعُ عَنّا الآنَ بَرُّ الأَمانِ! أَيُّ عَدْلٍ هٰذا؟

غَيْرَ أَنَّ أَلَن لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَتَسَرَّبَ الضَّعْفُ إلى قَلْبِهِ. وقادَني شَرْقًا صَوْبَ البَحْرِ، وقالَ لي بِصَوْتٍ حازِمٍ:

«إنْ لَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ عُبورِ الجِسْرِ فَعَلَيْنا أن نُجَرِّبَ عُبورَ مَصَبِّ النَّهْرِ.»

لَمْ أَقْتَنِعْ بِجَدْوى اقْتِراحِهِ، وقُلْتُ: «البَحْرُ عِنْدَ المَصَبِّ أَعْرَضُ مِنَ النَّهْرِ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنَ العُبورِ ولَيْسَ مَعَنا ما نَسْتَأْجِرُ بِهِ قارِبًا؟»

أَجابَ بِاطْمِئْنانٍ: «سَأَجِدُ طَريقَةً. سَأَجِدُ مَنْ يَعْبُرُ بِنا المَصَبَّ بِقارِبِهِ ويَعودُ بِهِ تَجَنُّبًا لإثارَةِ الشُكوكِ.»

لَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ سَيُنَفِّذُ خُطَّتَهُ، وصَرَّحْتُ لَهُ بِعَدَمِ ارْتِياحي، لكِنَّهُ بَقِيَ عَلى اطْمِئْنانِهِ. وهٰكَذا مَشَيْنا طَوالَ اللَّيْلِ في الاتِّجاهِ المُقْتَرَحِ.

وَصَلْنا في صَباحِ اليَوْمِ التّالي إلى نُزُلٍ يُواجِهُ مَدينَةَ كُويِنْزْفَري عَلى الضِّفَّةِ الأُخْرى لِلنَّهْرِ، حَيْثُ كُنْتُ أَسْعى لِلْوُصولِ. في تِلْكَ المَدينَةِ كانَ يَعيشُ المُحامي السَّيِّد رَنْكِيلَر الّذي كُنْتُ أَنْوي طَلَبَ مُساعَدَتِهِ في مُحاوَلَتي اسْتِعادَةَ ميراثي.

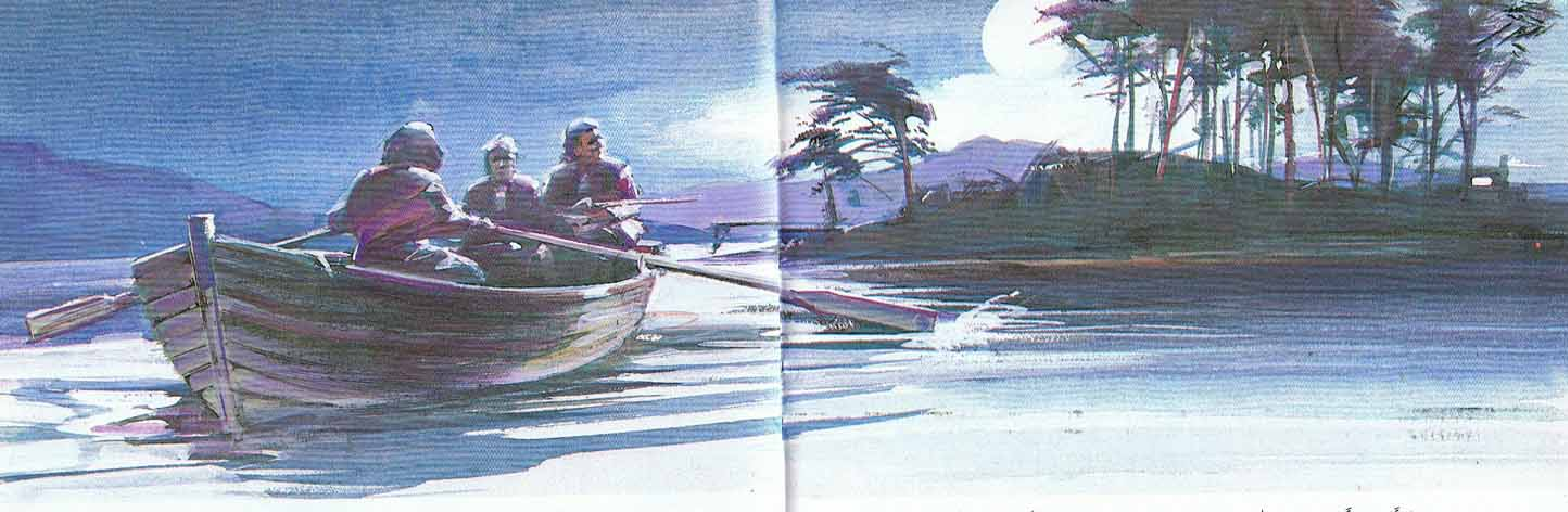
قامَتْ عَلى خِدْمَتِنا في النُّزُلِ صَبِيَّةٌ حَسْناءُ. ورَأَيْتُ أَلَن يَجْلِسُ صامِتًا وقَدِ اسْتَغْرَقَ في التَّفْكيرِ. أَخيرًا تَكَلَّمَ فَقالَ:

«هَلْ لاحَظْتَ الحَسْناءَ الّتي تَقومُ عَلى خِدْمَتِنا؟»

أَجَبْتُ أَنّي لاحَظْتُها وأَنّي أَراها جَميلَةً.

قالَ أَلَن: «عَظيمٌ. فإنَّكَ إنِ اسْتَطَعْتَ كَسْبَ عَطْفِها فَقَدْ تُزَوِّدُنا بِقارِبٍ. أَنْتَ عَليلٌ وهٰذا بادٍ عَلى وَجْهِكَ، لٰكِنْ تَظاهَرْ أَنَّكَ أَكْثَرُ اعْتِلالًا مِمّا أَنْتَ عَلَيْهِ فِعْلًا.»





رَضِيتُ أَوَّلَ الأَمْرِ القِيامَ بِهٰذا الدَّوْرِ. فَقَدْ بَدا لي ذٰلِكَ مُسَلِّيًا. لٰكِنَّ أَلَن راحَ يُبالِغُ أَمامَ الصَّبِيَّةِ في وَصْفِ اعْتِلالي وسوءِ حالي، حتّى أَثارَ غَضَبي مِنْ هٰذا الشَّكْلِ مِنَ الغِشِّ.

أخيرًا تَوَسَّلْتُ إلى أَلَن لِيَكُفَّ عَنْ مُبالَغاتِهِ، لٰكِنَّ صَوْتي جاءَ، في غَمْرَةِ انْفِعالي، مُخْتَنِقًا ضَعيفًا، بِحَيْثُ بَدَوْتُ عليلًا فِعْلًا مِثْلَما حاوَلَ صَديقي أَنْ يُصَوِّرَني.

تَحَوَّلَ اهْتِمامُ الصَّبِيَّةِ الآنَ إلى اكْتِئابٍ، وهَتَفَتْ أَخيرًا في حُزْنٍ: «أَلَيْسَ لَهُ أَهْلٌ وأَصْحابٌ يَتَوَلَّوْنَ رِعايَتَهُ؟»

أَسْرَعَ أَلَن يَقولُ بِدَهاءٍ: «يَصْعُبُ الوُصولُ إلى أَهْلِهِ وأَصْحابِهِ.»

قالَتِ الفَتاةُ، وقَدْ وَقَعَتْ في الفَخِّ: «لٰكِنْ لِماذا؟ وكَيْفَ يَكونُ ذٰلِكَ؟»

لَمْ يَقُلْ أَلَن شَيْئًا لٰكِنَّهُ راحَ يُصَفِّرُ لَحْنًا مِنْ أَلْحانِ العُصاةِ الاسْكُتْلَنْدِيِّينَ. فَصُعِقَتِ الصَّبِيَّةُ، وقَدْ تَحَوَّلَ اكْتِئابُها إلى هَلَعٍ، خَوْفًا عَلَيَّ مِمّا يُصيبُ العُصاةَ مِنْ مَصيرٍ، وهَتَفَتْ قائِلَةً: «صَهْ؟» وكَبَّرَ أَلَن الهاجِسَ الّذي أَفْزَعَها بِأَنْ مَرَّ بِحافَةِ كَفِّهِ أَمامَ عُنُقِهِ، وكَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُصَوِّرَ لَها المَصيرَ الّذي يَنْتَظِرُني إذا ما أُلْقِيَ القَبْضُ عَلَيَّ.

لَمْ نَجِدْ بَعْدَ ذٰلِكَ صُعوبَةً كَبيرَةً في إِقْناعِ الصَّبِيَّةِ بِمُساعَدَتِنا، وبِخاصَّةٍ عِنْدَما ذَكَرْتُ أَنّي لَمْ أَرْتَكِبْ جُرْمًا، وأَنّي أَسْعى لِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ رَنْكيلَر الّذي تَبَيَّنَ لَنا أَنَّها تَعْرِفُهُ.

أَشارَتْ عَلَيْنا بِالانْتِظارِ في غابَةٍ قَريبَةٍ حتّى الحادِيَةَ عَشْرَةَ لَيْلًا، رَيْثَما تُفَكِّرُ في وَسيلَةٍ تُساعِدُنا بِها. ووَعَدَتْ بِالعَوْدَةِ إِلَيْنا.

اِنْتَظَرْنا، لٰكِنّا كُنّا غَيْرَ واثِقَيْنِ مِنْ أَنَّها سَتَفي بِوَعْدِها. وكانَتْ، لِحُسْنِ الحَظِّ، وَفِيَّةً وشُجاعَةً. فَقَدْ عادَتْ إِلَيْنا، ونَقَلَتْنا بِنَفْسِها عَبْرَ النَّهْرِ في قارِبٍ اسْتَعارَتْهُ مِنْ جيرانٍ لَها.

اِفْتَرَقْنا، أَلَن وأَنا، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي خارِجَ مَدينَةِ كْوينْزْفِري. أَنا تَوَجَّهْتُ إلى مَنْزِلِ رَنْكيلَر بَيْنَما بَقِيَ أَلَن مُخْتَبِئًا رَيْثَما أَعودُ إِلَيْهِ.

وبَيْنا أَنا أَعْبُرُ شَوارِعَ المَدينَةِ النَّظيفَةِ الهادِئَةِ راحَتْ صُوَرُ المُغامَراتِ الّتي عِشْتُها تَتَوالى عَلى مُخَيِّلَتي. وبَدَتْ تِلْكَ المُغامَراتُ في تَوالِيها وعُنْفِها ومَخاطِرِها أَشْبَهَ بِالخَيالِ، وأَدْرَكْتُ أَنّي قَدْ لا أَجِدُ إِنْسانًا عاقِلًا يُصَدِّقُها. بَلْ إِنّي عِنْدَما نَظَرْتُ إلى ثِيابي الرَّثَّةِ المُمَزَّقَةِ أَدْرَكْتُ أَنّي قَدْ لا أَجِدُ إِنْسانًا عاقِلًا يَقْبَلُ حَتّى أَنْ يُدْخِلَني بَيْتَهُ.



وَقَفْتُ أَمامَ بَيْتِ المُحامي تَنْهَشُني الشُكوكُ. ولَعَلّي لَمْ أَكُنْ لِأَجِدَ الشَّجاعَةَ لِمُحاوَلَةِ الدُخولِ لَوْ لَمْ يَنْفَتِحِ البابُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ كاشِفًا عَنْ وَجْهِ عَجوزٍ وَديعٍ.

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ الرَّجُلَ، وَلا كانَ هُوَ يَعْرِفُني، لٰكِنَّهُ وقَدْ قَرَأَ البُؤْسَ المَنْقوشَ عَلى وَجْهِي، ورَأى ثِيابي المُمَزَّقَةَ، اقْتَرَبَ مِنّي خُطْوَةً وسَأَلَني عَنِ اسْمي.

أَجَبْتُ عَلى الفَوْرِ: «روبِن فور آل شوز، يا سَيِّدي.»

أَجْفَلَ الرَّجُلُ مِنْ جَوابي، ورَدَّدَ بِصَوْتٍ ذاهِلٍ: «روبِن فور!» ثُمَّ تَمالَكَ نَفْسَهُ ونَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً ثاقِبَةً وقالَ: «ومِنْ أَيْنَ جِئْتَ، يا سَيِّدُ فور؟»

أَجَبْتُ: «جِئْتُ مِنْ أَماكِنَ كَثيرَةٍ غَريبَةٍ، يا سَيِّدي وأَسْتَطيعُ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِالكَثيرِ لَوْ لَمْ نَكُنْ في مِثْلِ هٰذا المَكانِ العامِّ.»

كُنْتُ أَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذي بَرَزَ أَمامي هُوَ السَّيِّدُ رَنْكيلَر نَفْسُهُ. وَقَدْ أَدْخَلَني المُحامي، بَعْدَ سَماعِ جَوابي، إلى مَنْزِلِهِ، وقادَني إلى غُرْفَةِ المَكْتَبِ. وهُناكَ جَلَسَ في كُرْسِيِّهِ ودَعاني بِأَدَبٍ إلى الجُلوسِ. ثُمَّ بادَرَني بِلَهْجَةِ رَجُلِ الأَعْمالِ قائِلًا:

«والآنَ، يا سَيِّدُ فور، ما الَّذي تُريدُهُ؟»

اِحْمَرَّ وَجْهي ارْتِباكًا وعَضَضْتُ لِساني، ثُمَّ أَسْرَعْتُ أَقولُ: «أَعْتَقِدُ أَنّي صاحِبُ الحَقِّ في قَصْرِ آلِ شوز وأَراضيهِمْ.»

لَمْ يَبْدُ عَلى المُحامي أَنَّهُ فوجِئَ بِما قُلْتُهُ مُنْفَعِلًا، بَلِ اكْتَفى بِأَنْ نَظَرَ إِلَيَّ وقالَ: «أَكْمِلْ كَلامَكَ.»

عَرَفْتُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وأَنا أَمامَ ذٰلِكَ المَوْقِفِ، أَنْ لا أَمَلَ لي إلّا إذا وَضَعْتُ ثِقَتي الكامِلَةَ في ذٰلِكَ الرَّجُلِ. فعَقَدْتُ العَزْمَ عَلى إِخْبارِهِ بِالحَقيقَةِ كُلِّها، ورَوَيْتُ لَهُ مُغامَراتي مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها.

لَم يَكُنْ، كَمُحامٍ، قادِرًا عَلى أَنْ يَتَسامَحَ بِأَمْرِ الصَّداقَةِ بَيْني وبَيْنَ رَجُلٍ خارِجٍ عَلى القانونِ. لٰكِنَّهُ اخْتارَ حَلًّا وَسَطًا، فتَظاهَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعِ اسْمَ أَلَن عَلى نَحْوٍ سَليمٍ وسَمّاهُ السَّيِّدُ طومْسُن.

راحَ السَّيِّدُ رَنْكيلَر يَسْأَلُني عَنْ بَعْضِ التَّفاصيلِ في مُغامَراتي ويُدَوِّنُ إجاباتي في دَفْتَرِهِ. ثُمَّ قامَ يُقارِنُ ما قُلْتُ بِأَوْراقٍ كانَتْ مَجْموعَةً لَدَيْهِ.

أَخيرًا ابْتَسَمَ وقالَ: «رِوايَتُكَ تُوافِقُ الحَقائِقَ الَّتي تَجَمَّعَتْ لَدَيَّ. يا سَيِّدُ فور لَقَدْ واجَهْتَ الكَثيرَ مِنَ المَخاطِرِ، وتَصَرَّفْتَ، في غالِبِ الأَحْيانِ، التَّصَرُّفَ الحَسَنَ. إنَّ السَّيِّدَ طومْسُن رَجُلٌ رَفيعُ المَزايا لٰكِنَّهُ مُتَهَوِّرٌ. أَخْلَصْتَ لَهُ وأَخْلَصَ لَكَ، والإِخْلاصُ صِفَةٌ حَميدَةٌ. أَظُنُّ أَنَّ تِلْكَ أَيّامٌ وَلَّتْ. أَنتَ توشِكُ الآنَ عَلى الخَلاصِ مِنْ مَتاعِبِكَ.»

أَمَرَ لي عِنْدَئِذٍ بِمَوادَّ لِلاسْتِحْمامِ وأَعْطاني بَعْضَ ثِيابِ ابنٍ مِنْ أَبْنائِهِ، ودَعاني لِتَناوُلِ العَشاءِ مَعَهُ. ثُمَّ تَرَكَني ومَضى.

حَكى لي السَّيِّدُ رَنْكيلَر عَلى العَشاءِ حِكايَةَ الإِرْثِ الغَريبَةَ الّتي كُنْتُ أَسْعى لِكَشْفِها. قالَ:

«بَدَأَتِ الحِكايَةُ بَعْدَ قِصَّةِ غَرامٍ. فَقَدْ كانَ عَمُّكَ إِبنيزَر في صِباهُ شابًّا وَسيمًا نَبيلًا. وكانَ شُجاعًا إلى حَدِّ التَّهَوُّرِ، وقَدْ الْتَحَقَ في العامِ ١٧١٥ بِالثّائِرينَ عَلى سُلْطَةِ مَلِكِ الإِنْكليزِ، لٰكِنَّ أَباكَ الرَّصينَ العاقِلَ لَحِقَ بِهِ وأَعادَهُ إلى المَنْزِلِ.

«ثُمَّ وَقَعَ الأَخَوانِ في غَرامِ صَبِيَّةٍ واحِدَةٍ. وكانَ عَمُّكَ، الأَصْغَرُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ، قَدْ عاشَ طُفولَةً مُدَلَّلَةً بَعَثَتْ في نَفْسِهِ الغُرورَ. وقَدْ ظَنَّ لِذٰلِكَ أَنَّ مِنَ اليَسيرِ عَلَيْهِ الفَوْزَ بِقَلْبِ الصَّبِيَّةِ الّتي أَحَبَّ. غَيْرَ أَنَّ الصَّبِيَّةَ اخْتارَتْ أَباكَ، فتَرَكَ ذٰلِكَ في قَلْبِ عَمِّكَ جُرْحًا عَميقًا وأَحَسَّ أَنَّ كَرامَتَهُ طُعِنَتْ.

«اِمْتَطى جَوادَهُ وراحَ يَطوفُ في المَناطِقِ المُجاوِرَةِ يَرْوي قِصَّتَهُ لِلنّاسِ ويَزْعُمُ أَنَّ شَقيقَهُ خَدَعَهُ.

«وَكانَ أَبوكَ، يا سَيِّدُ روبن، رَجُلًا عَطوفًا صادِقًا شَهْمًا، وعِنْدَما رَأى عَذابَ أَخيهِ تَخَلّى لَهُ عَنِ الفَتاةِ الّتي يُحِبُّ. لٰكِنَّ الفَتاةَ نَفْسَها لَمْ تَكُنْ تُحِبُّ إِبنيزَر، وقَدْ أَغْضَبَها تَصَرُّفُ أَبيكَ فرَفَضَتِ الرَّجُلَيْنِ مَعًا.

«نَشِبَ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ بَعْدَ ذٰلِكَ نِزاعٌ طَويلٌ انْتَهى إلى اتِّفاقٍ غَريبٍ، لَمْ يَأْخُذْ فيهِ أَيٌّ مِنْهُما بِنَصيحَةِ المُحامي. وقَضى الاِتِّفاقُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ أَبوكَ الفَتاةَ الّتي يُحِبُّ ويَأْخُذَ عَمُّكَ إِبنيزَر قَصْرَ آلِ شوز وأَراضِيَهُمْ.

«وكانَ مِنْ نَتيجَةِ ذٰلِكَ أَنْ عاشَ أَبوكَ وأُمُّكَ حَياةَ فَقْرٍ، بَيْنَما ظَلَّ عَمُّكَ يُحِسُّ أَنَّهُ مَظْلومٌ، ويَزيدُهُ ذٰلِكَ الشُّعورُ مَرارَةً وقَسْوَةً يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. وكانَ مِنْ نَتيجَةِ ما تَلَبَّسَهُ مِنْ طِباعٍ سَيِّئَةٍ أَنْ كَرِهَهُ المُزارِعونَ في أَراضيهِ وتَخَلّى عَنْهُ أَصْدِقاؤُهُ. وقَدْ لَمَسْتَ أَنْتَ نَفْسُكَ شَيْئًا مِنْ أَنانِيَّتِهِ وجَشَعِهِ.»

قُلْتُ: «كَيْفَ تَرى وَضْعي، يا سَيِّدي، والحالُ عَلى ما ذَكَرْتَ؟ هَلى تُغَيِّرُ قِصَّةُ الحُبِّ تِلْكَ، وَما تَأَتّى عَنْها مِنْ نَتائِجَ، حَقّي في أَنْ أَرِثَ مُمْتَلَكاتِ آلِ شوز؟»

أجابَ السَّيِّدُ رَنْكيلَر: «لَمّا كانَ ذٰلِكَ الإتِّفاقُ لَمْ يُدَوَّنْ في وَثيقَةٍ قانونِيَّةٍ، فَأَنْتَ لا تَزالُ في نَظَرِ القانونِ الوَريثَ الشَّرْعِيَّ. إلّا أَنَّ عَمَّكَ لَنْ يَتَخَلّى لَكَ عَنْ حَقِّكَ بِسُهولَةٍ. ولَيْسَ هُناكَ ما يُثْبِتُ أَنَّ عَمَّكَ سَعى إلى اخْتِطافِكَ، كَما أَنَّ صَداقَتَكَ لِلسَّيِّدِ طومْسُن لَنْ تَروقَ في عَيْنِ السُّلْطَةِ.

أَنْصَحُكَ لِذٰلِكَ أَنْ تَتْرُكَ عَمَّكَ يُقيمُ في قَصْرِ آلِ شوز عَلى أَنْ تَجْعَلَهُ يُشْرِكُكَ في غَلَّةِ الأَرْضِ.»

أَجَبْتُ: «مُوافِقٌ، لٰكِنْ عَلَيْنا أَنْ نُوْقِعَهُ في فَخٍّ وإلّا فَلَنْ يُشْرِكَني في غَلَّةِ الأَرْضِ أَبَدًا. عَلَيْنا أَنْ نَجْعَلَهُ يَعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ أَمامَ شُهودٍ.»

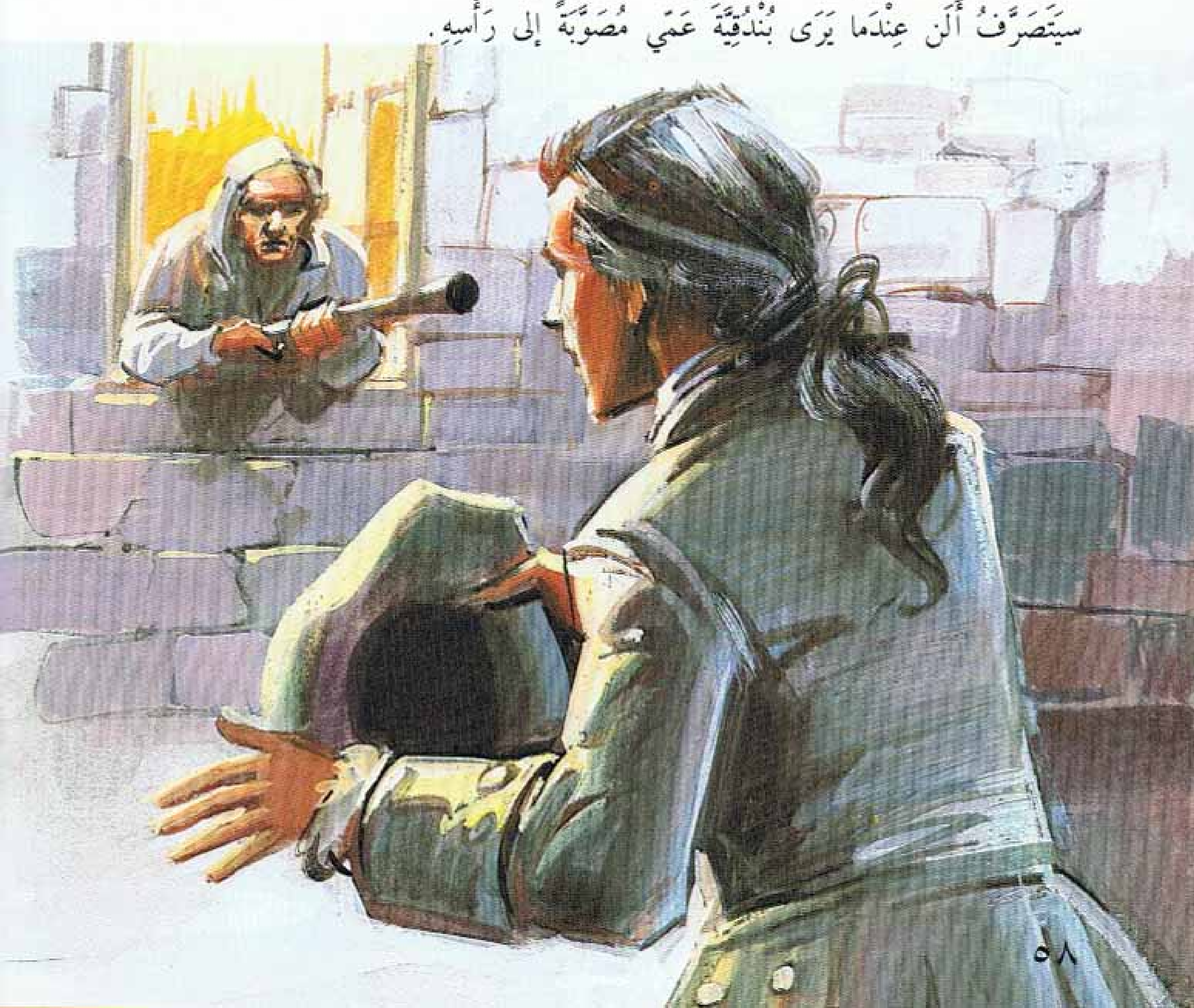


أَعْدَدْتُ خُطَّةً لِلإيقاعِ بِعَمّي ، لٰكِنَّها كانَتْ تَتَطَلَّبُ لِقاءً بَيْنَ السَّيِّدِ رَنْكيلَر وأَلَن بْرِك ، وهُوَ أَمْرٌ لَمْ يُوافِقْ عَلَيْهِ المُحامي إِلّا بَعْدَ تَرَدُّدٍ شَديدٍ.

اِلْتَقَيْنا أَلَن في مَكانِ اخْتِبائِهِ ، ودَرَسَ هُوَ والسَّيِّدُ رَنْكيلَر الخُطَّةَ ، وأَبْدى اسْتِعْدادَهُ لِمُساعَدَتي. وهٰكَذا انْطَلَقْنا جَميعًا صَوْبَ قَصْرِ آلِ شوز ، بَعْدَ أَنِ اصْطَحَبْنا مَعَنا طورَنْس ، كاتِبَ المُحامي ، لِيَكونَ شاهِدًا آخَرَ.

كانَتْ لَيْلَةً دافِئَةً حالِكَةَ السَّوادِ ، يَهُبُّ هَواؤُها نَسيمًا يُحَرِّكُ أَوْراقَ الشَّجَرِ السّاقِطَةَ عَلى الأَرْضِ. زَحَفْنا نَحْوَ القَصْرِ المُجَلَّلِ بِالسَّوادِ واخْتَبَأْنا في زاوِيَةٍ مِنْ زَواياهُ. ثُمَّ مَشى أَلَن إِلى البَوّابَةِ الأَمامِيَّةِ وقَرَعَها قَرْعًا شَديدًا.

رَأَيْتُ بَعْدَ حينٍ نافِذَةَ الطّابِقِ الأَوَّلِ تُفْتَحُ بِهُدوءٍ. ورُحْتُ أَتَساءَلُ مُبْتَسِمًا كَيْفَ سَيَتَصَرَّفُ أَلَن عِنْدَما يَرى بُنْدُقِيَّةَ عَمّي مُصَوَّبَةً إِلى رَأْسِهِ.



جاءَ صَوْتُ عَمّي الأَجَشُّ البارِدُ قائِلًا : «ما هٰذا؟ ما تُريدُ في هٰذا الوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ؟»

تَراجَعَ أَلَن خُطْوَةً ونَظَرَ إلى أَعْلى ، وسَأَلَ «أَهٰذا أَنْتَ ، يا سَيِّدُ فور؟ أَبْعِدْ هٰذِهِ البُنْدُقِيَّةَ العَتيقَةَ عَنْكَ ، فَقَدْ تَنْفَجِرُ !»

قالَ عَمّي بِصَوْتٍ غاضِبٍ : «ما جاءَ بِكَ إلى هُنا؟ مَنْ أَنْتَ؟»

أَجابَ أَلَن : «اِسْمي لا يَعْنيكَ . جِئْتُ في أَمْرٍ يَخُصُّكَ أَنْتَ .»

سَأَلَ عَمّي قائِلًا : «أَيُّ أَمْرٍ هٰذا الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟»

أَجابَ أَلَن : «روبِن .»

سَكَتَ عَمّي بُرْهَةً ، ثُمَّ جاءَ صَوْتُهُ مُرْتَعِشًا يَقولُ : «لَعَلَّ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَدْخُلَ .»

وبَدا أَلَن كأَنَّهُ اسْتاءَ مِنْ تَصَرُّفِ عَمّي غَيْرِ اللّائِقِ اسْتِياءً بالِغًا ، فقالَ إِنَّهُ لَنْ يَتَزَحْزَحَ عَنِ البابِ .

اِخْتَفى عَمّي مِنْ نافِذَةِ الطّابِقِ الأَوَّلِ لِيَظْهَرَ بَعْدَ قَليلٍ عِنْدَ البابِ . ثُمَّ جَلَسَ عَلى دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجاتِ السُّلَّمِ ، والبُنْدُقِيَّةُ لا تَزالُ بَيْنَ يَدَيْهِ المُرْتَجِفَتَيْنِ .

قالَ : «والآنَ ، هاتِ ما عِنْدَكَ .»

شَرَعَ أَلَن يَرْوي ما عِنْدَهُ ، فقالَ : «مُنْذُ زَمَنٍ غَيْرِ بَعيدٍ ، غَرِقَتْ سَفينَةٌ قَريبًا مِنْ جَزيرَةِ مُل حَيْثُ أَعيشُ . وَفي اليَوْمِ التّالي وَجَدَ قَريبٌ لي وَلَدًا عَلى الشّاطِئِ ، كانَ بَيْنَ المَوْتِ وَالحَياةِ . وقَدْ رَأى قَريبي وأَصْدِقاءُ لَهُ أَنَّ ذاكَ الوَلَدَ نَفورُ الطَّبْعِ طائِشٌ لا يَكْتَرِثُ بِالقانونِ فنَقَلوهُ إلى قَلْعَةٍ قَديمَةٍ . ثُمَّ اكْتَشَفوا أَنَّه ابْنُ أَخيكَ ، فاحْتَجَزوهُ رَهينَةً لِيَطْلُبوا مِنْكَ فِدْيَةً . إذا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ فلَنْ تَرى ابْنَ أَخيكَ أَبَدًا .»

جاءَ صَوْتُ عَمّي بَطيئًا مُتَأَنِّيًا يَقولُ : «الأَمْرُ لا يَعْنيني . لَمْ يَكُنْ وَلَدًا صالِحًا .»

قالَ أَلَن : «لا شَكَّ أَنَّكَ تَتَظاهَرُ بِعَدَمِ الاِكْتِراثِ . فَهِمْتُ ، أَنْتَ تُحاوِلُ أَنْ تُقَلِّلَ مِنَ المَبْلَغِ .»

أَسْرَعَ إِبنيزَر يَقولُ: «لا، الوَلَدُ لا يَهُمُّني. لَنْ أَدْفَعَ شَيْئًا. اِفْعَلوا بِهِ ما تَشاؤونَ.»

أَجابَ أَلَن: «أَهْلُ هٰذِهِ الدِّيارِ لَنْ يُعْجِبَهُمْ تَصَرُّفُكَ عِنْدَما يَعودُ روبِن ويُحَدِّثُهُمْ عَنْ جَشَعِكَ.»

أَسْرَعَ عَمّي يَقولُ بِحِدَّةٍ: «كَيْفَ؟»

تابَعَ أَلَن يَقولُ: «سيَحْتَجِزُ أَصْدِقائي الفَتى ما داموا يَطْمَعونَ بِالمالِ. فإذا عَرَفوا أَنَّهُمْ لَنْ يَحْصُلوا مِنْكَ عَلى شَيْءٍ فسيُطْلِقونَ سَراحَهُ.»

قالَ عَمّي بِصَوْتٍ غاضِبٍ: «لا يُعْجِبُني ذٰلِكَ.»

عَرَفَ أَلَن أَنَّ عَمّي وَقَعَ في الفَخِّ، فَقالَ بِصَوْتٍ ماكِرٍ: «أَنْتَ لا تُريدُ الفَتى. وَما حاجَتُنا نَحْنُ إِلَيْهِ؟ هَيّا الآنَ، كَمْ تَدْفَعُ؟»

سَكَتَ عَمّي بُرْهَةً ثُمَّ قالَ: «كَمْ تُريدونَ؟»

قالَ أَلَن: «إِنَّ احْتِجازَهُ أَكْثَرُ كُلْفَةً مِنْ قَتْلِهِ.»

زَعَقَ عَمّي: «أَكْثَرُ كُلْفَةً؟ عَلى كُلِّ حالٍ، لا بُدَّ مِمّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ. سأَدْفَعُ. فَهُوَ، مَهْما يَكُنِ الأَمْرُ، ابْنُ أَخي.»

قالَ أَلَن: «والآنَ، لِنَتَحَدَّثْ عَنِ المَبْلَغِ. كَمْ دَفَعْتَ لِلْقُبْطانِ هوزِن لِقاءَ اخْتِطافِ روبِن؟»

اِنْتَفَضَ عَمّي وصاحَ: «هٰذِهِ كِذْبَةٌ، كِذْبَةٌ خَسيسَةٌ!»

قالَ أَلَن بِلَهْجَةِ المُدافِعِ عَنْ نَفْسِهِ قائِلًا: «وَما ذَنْبي إذا كانَ صَديقُكَ هوزِن لا يَحْفَظُ سِرًّا.»

سَأَلَ عَمّي في حَيْرَةٍ: «هَلْ أَخْبَرَكَ هوزِن؟»

قالَ أَلَن: «أَنا وهوزِن نَعْمَلُ مَعًا. كُنْتَ أَحْمَقَ حينَ كَلَّفْتَهُ بِالمُهِمَّةِ. والآنَ قُلْ لي كَمْ دَفَعْتَ لَهُ؟»

أَجابَ عَمّي : «الحَقيقَةُ – دَفَعْتُ لَهُ عِشْرينَ جُنَيْهًا .»

عِنْدَ ذاكَ خَرَجَ المُحامي مِنْ مَخْبإِهِ ، وقالَ : «شُكْرًا ، يا سَيِّدُ طومْسُن. في هٰذا ما يَكْفي. مَساءَ الخَيْرِ ، يا سَيِّدُ فور. »

خَرَجْتُ أَنا أَيْضًا وقُلْتُ : «مَساءَ الخَيْرِ ، يا عَمّي إِبَنيزَر.»

وقالَ طورَنْس : «إِنَّها لَيْلَةٌ بَديعَةٌ ، يا سَيِّدُ فور.»

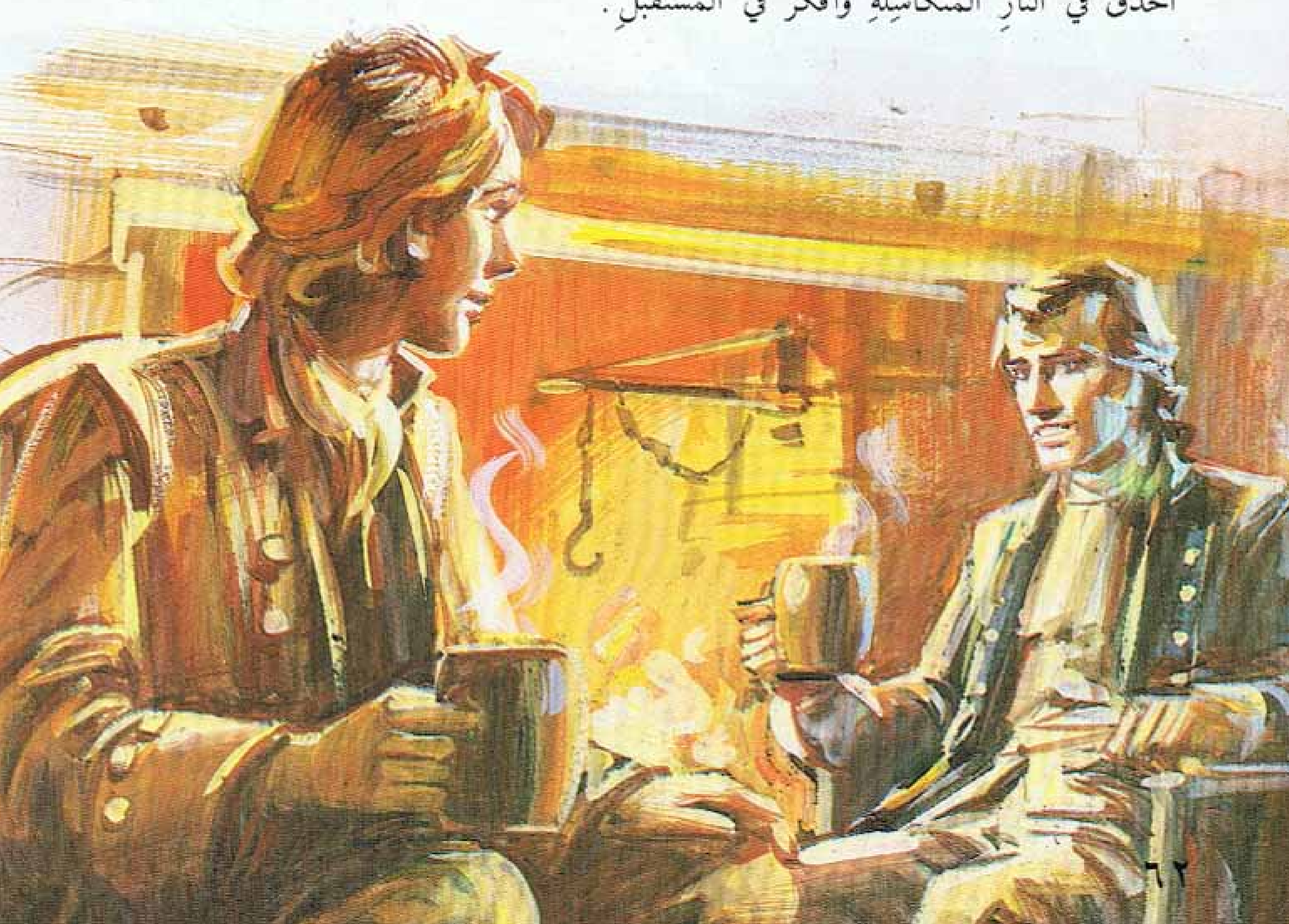


أَمْسَكَ السَّيِّدُ رَنْكيلَر عَمّي مِنْ ذِراعِهِ ودَخَلَ بِهِ المَنْزِلَ، ودَخَلْنا نَحْنُ وَراءَهُ. لَمْ يَقُلْ عَمّي شَيْئًا فَقَدْ صَعَقَهُ ما حَدَثَ. أَمّا نَحْنُ فكُنّا سُعَداءَ بِنَجاحِ حيلَتِنا، ولٰكِنّا أَشْفَقْنا على الرَّجُلِ الّذي أَوْصَلَ نَفْسَهُ إلى تِلْكَ الحالِ المُخْزِيَةِ.

ثُمَّ أَكَّدْنا لَهُ بَعْدَ حينٍ أَنَّ حالَهُ لَنْ تكونَ سَيِّئَةً إنْ هُوَ فَعَلَ ما نَطْلُبُ مِنْهُ. وقَدْ تَرَكْنا عَمّي والمُحامِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ لِمُناقَشَةِ التَّفاصيلِ، أَمّا أَنا وأَلَن فَقَدْ جَلَسْنا أَمامَ نارٍ مُتَّقِدَةٍ نَضَعُ خُطَّةً تُيَسِّرُ فِرارَ أَلَن إلى فَرَنْسا. لَمْ يَعُدِ الأَمْرُ صَعْبًا بَعْدَ تَوافُرِ المالِ.

تَنازَلَ عَمّي لي عَنِ القَصْرِ والأَراضي والجانِبِ الأَكْبَرِ مِنَ المَدْخولِ. وبَدا بائِسًا يائِسًا لا حَوْلَ لَهُ ولا قُوَّةَ. أَخيرًا اسْتَعَدْتُ حَقّي في الميراثِ، وابْتَهَجْتُ أَنا وأَصْدِقائي لِما انْتَهَتْ إلَيْهِ مُغامَراتُنا أَعْظَمَ ابْتِهاجٍ.

عِنْدَما أَوَيْتُ إلى فِراشي تِلْكَ اللَّيْلَةَ كُنْتُ رَجُلًا ثَرِيًّا. نامَ أَلَن والسَّيِّدُ رَنْكيلَر وطورَنْس في أَسِرَّتِهِمْ نَوْمًا عَميقًا. أَمّا أَنا فَقَدْ جَفاني النَّوْمُ وظَلِلْتُ طَوالَ اللَّيْلِ ساهِرًا أُحَدِّقُ في النّارِ المُتَكاسِلَةِ وأُفَكِّرُ في المُسْتَقْبَلِ.





روبرت لويس ستيفنسون

كانَ روبرت لويس ستيفنسون رَحّالَةً مُغامِرًا وإنْسانًا رومَنْسِيًّا، واشْتَهَرَ - حَتّى خِلالَ حَياتِهِ القَصيرَةِ - كَروائِيٍّ ناجِحٍ وشاعِرٍ وكاتِبِ مَقالاتٍ مُتَمَيِّزِ الأُسْلوبِ. وقَدْ حَفَلَتْ حَياتُهُ بِالإِثارَةِ كَما حَفَلَتْ رِواياتُهُ الشَّهيرَةُ بِالمُغامَراتِ.

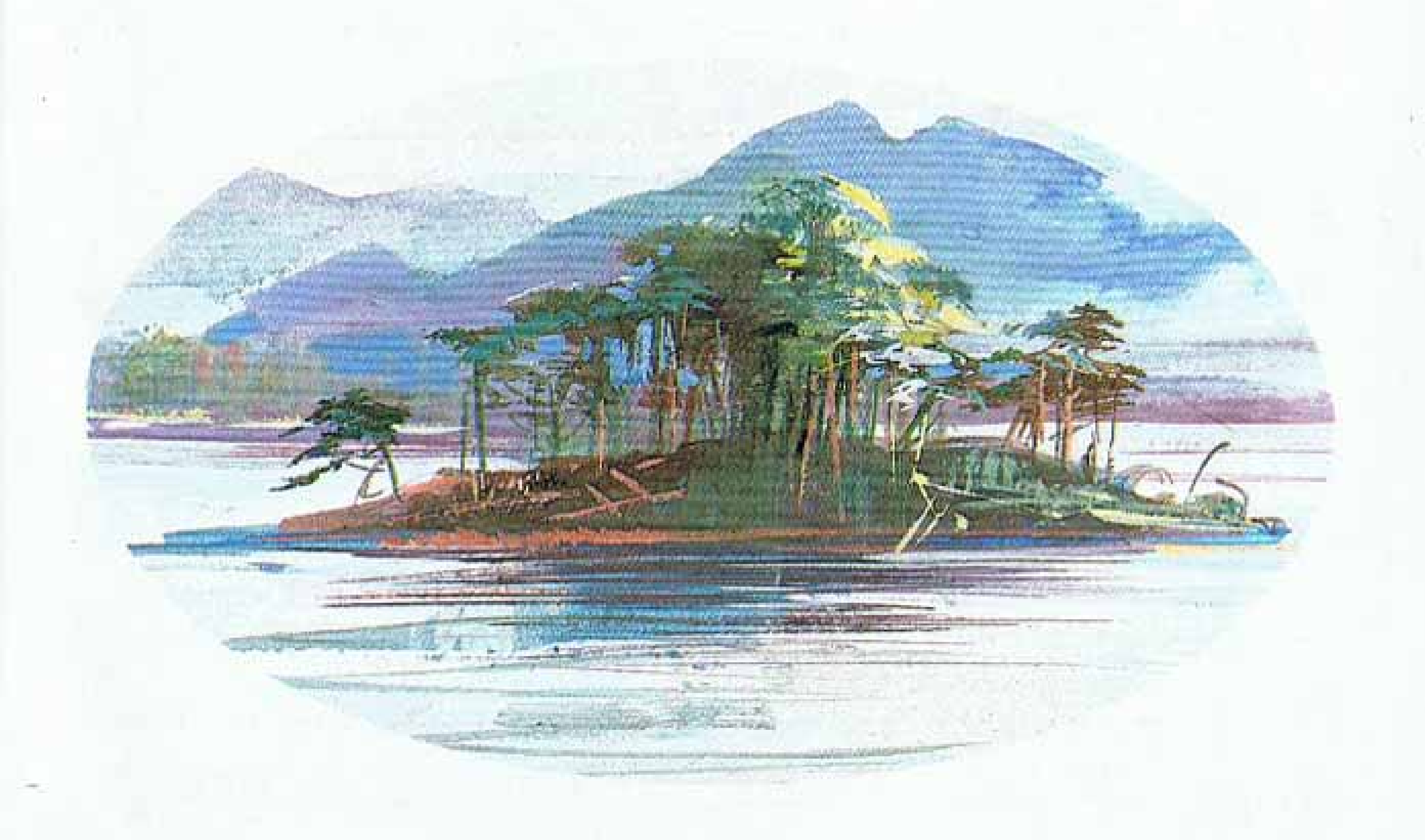
وُلِدَ ستيفنسون عامَ ١٨٥٠ في إدنبره، إسكتلندا، وكانَ وَحيدًا لِوالِدَيْنِ مَيْسورَيْنِ. عاشَ طُفولَةً هادِئَةً مُنْطَوِيَةً، وعانى مِنِ اضْطِراباتٍ صِحِّيَّةٍ. كانَ والِداهُ يَرْغَبانِ أَنْ يُتابِعَ عَمَلَ والِدِهِ كَمُهَنْدِسٍ لِلْمَناراتِ فَالْتَحَقَ بِجامِعَةِ إدنبره لِدِراسَةِ الهَنْدَسَةِ. وسَرْعانَ ما اكْتَشَفَ مَوْهِبَتَهُ في الكِتابَةِ وتَحَوَّلَ إلى دِراسَةِ القانونِ ونالَ شَهادَةً فيهِ. ولٰكِنَّهُ لَمْ يُزاوِلْ مِهْنَةَ المُحاماةِ إذْ أَخَذَ يَنْشَغِلُ بِرِحْلاتِهِ.

رَحَلَ ستيفنسون إلى فرنسا لِأَسْبابٍ صِحِّيَّةٍ ووَصَفَ مُغامَراتِهِ في كِتابِهِ «**رحلات على ظَهْرِ حِمار**» (١٨٧٩) الّذي لاقَى نَجاحًا مَقْبولًا. اِلْتَقى - في فرنسا - بِالأَميرِكِيَّةِ فاني أوسبورْن، وهِيَ امْرَأَةٌ مُطَلَّقَةٌ ولَها طِفْلانِ، فَأَحَبَّها بِعُمْقٍ، حَتّى إِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَلْحَقَ بِها إلى أَميركا، فَسافَرَ بِالباخِرَةِ ثُمَّ بِالقِطارِ في ظُروفٍ مُرْهِقَةٍ كادَتْ تودي بِحَياتِهِ. ولٰكِنَّهُ اسْتَرَدَّ عافِيَتَهُ، وتَزَوَّجَ مِنْها سَنَةَ ١٨٨٠.

عامَ ١٨٨١ عادا إلى أوروبّا لِيَعيشا في إسكتلندا، حَيْثُ بَدَأَ رِوايَتَهُ «**جزيرة الكَنْز**» (١٨٨٣)، ثُمَّ انْتَقَلا إلى سويسرا، ثُمَّ إلى إنكلترا. وفي بورنماوث كَتَبَ ستيفنسون رِوايَتَهُ «**دكتور جيكل ومستر هايد**» (١٨٨٦) التي لاقَتْ نَجاحًا هائِلًا، أَعْقَبَهُ نَجاحُ رِوايَةِ «**المَخْطوف**» (١٨٨٦).

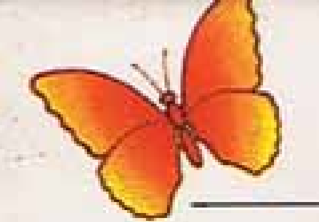
اِعْتَلَّتْ صِحَّةُ ستيڤنسون ثانِيَةً، فَقَرَّرَتِ العائِلَةُ العَوْدَةَ إلى أميركا عامَ ١٨٨٧؛ وقَدْ أَمْضى هُناكَ عامًا انْكَبَّ خِلالَهُ عَلى التَّأْليفِ. أَبْحَرَ هُوَ وأَفْرادُ عائِلَتِهِ، عامَ ١٨٨٨، في يَخْتِهِم الخاصِّ، إلى جُزُرِ جَنوبِ المُحيطِ الهادئ، وهٰذِهِ الرِّحْلَةُ كانَتْ تُراوِدُ أَحْلامَ ستيڤنسون ولَطالَما ظَهَرَ شَغَفُهُ بِمِثْلِها في كِتاباتِهِ. وقَدِ ابْتَهَجَ ستيڤنسون بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ إذْ لاءَمَ الطَّقْسُ صِحَّتَهُ وحَرَّكَ البَحْرُ مَشاعِرَهُ وأَثارَتْهُ طَبيعَةُ الجُزُرِ وسُكّانِها. ولَمّا وَصَلوا، في سَنَةِ ١٨٨٩، إلى جَزيرَةِ أوبولو، وهي إحْدى جُزُرِ السّاموا، قَرَّروا الاسْتِقْرارَ هُناكَ، فَبَنَوْا مَنْزِلًا فَخْمًا عاشوا فيهِ سُعَداءَ وانْدَمَجوا في المُجْتَمَعِ المَحَلِّيِّ.

كَتَبَ ستيڤنسون «**كاتريونا**» وبَدَأَ كِتابًا آخَرَ، ولٰكِنْ، بِالرَّغْمِ مِنَ المُناخِ المُناسِبِ وأَثَرِ تِلْكَ السَّنَواتِ السَّعيدَةِ، فَإِنَّ حالَتَهُ الصِّحِّيَّةَ قَدْ ساءَتْ. وفي الثّالِثِ مِنْ كانونَ الأَوَّلِ (ديسمبر) عامَ ١٨٩٤ تُوُفِّيَ ستيڤنسون ودُفِنَ عَلى رَأْسِ تَلَّةٍ تُشْرِفُ عَلى مَنْزِلِهِ وعَلى البَحْرِ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليفَر تْويشت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْفيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير



كتب الفراشة

القصص العالمية ٦. المخطوف

اختارت **مكتبة لبنان ناشرون** أروع القصص العالمية، ونقلتها إلى العربية مبسطة، مراعية الأمانة في النقل والمحافظة على جزالة الأسلوب العربي وبلاغته، مع تشكيل كامل وضبط دقيق. وقد أشرف على هذه السلسلة خبراء دائرتي النشر والمعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتى نوفر للقارئ العربي إنتاجا فكريا متفوقا مظهرا ومضمونا.



مكتبة لبنان ناشرون

